مصعب نصر

رواية

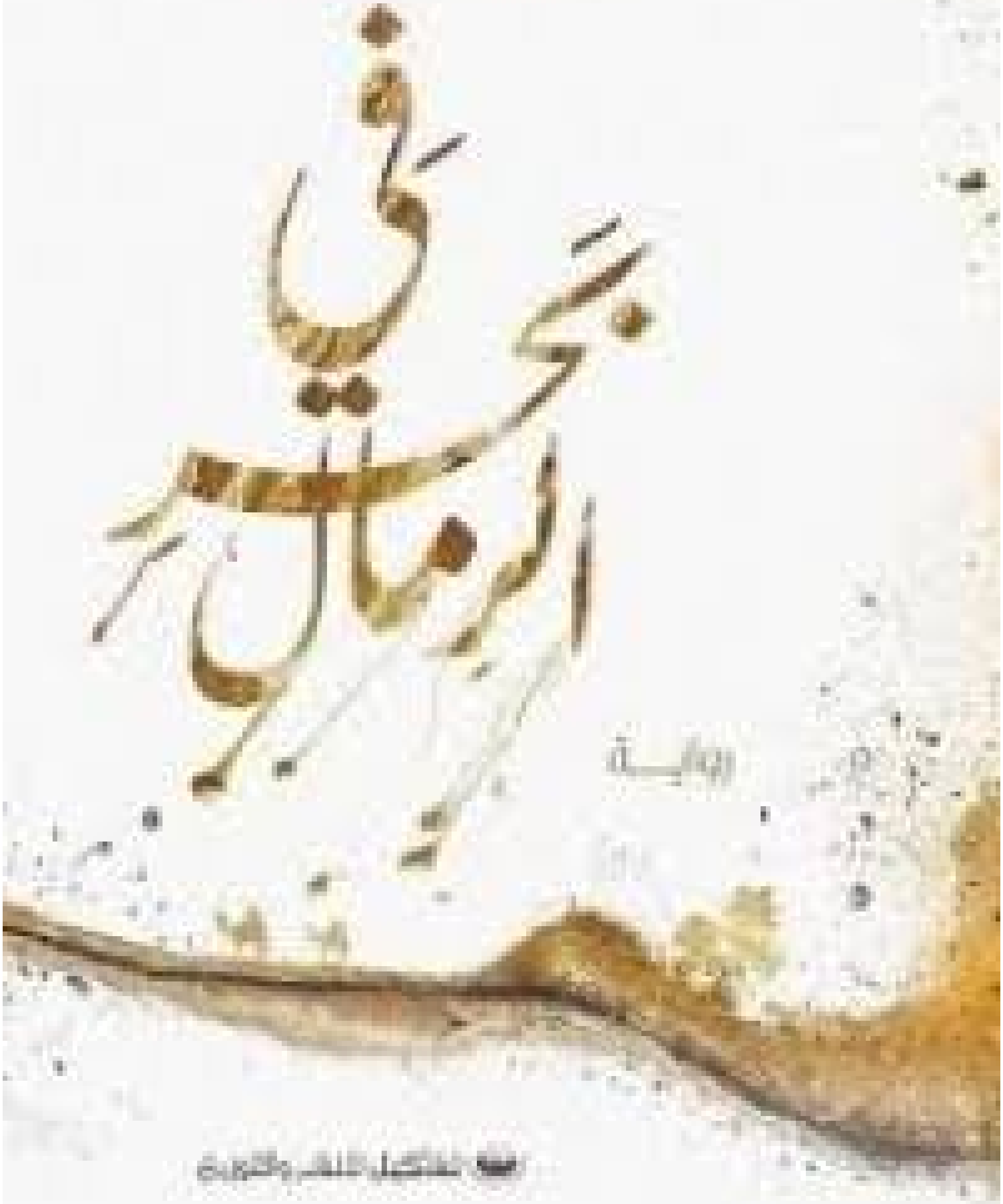

رُبّما إن حانت لحظةُ وداعِكَ يوماً ما وأنت في الصّحراء فدعها، ولا تدع شيئاً يُفسِدُها؛ ففي موت الصحراء كما في عيْشِها.. نشوة تستحِقُّ التفرُّد.

الفصل الأول

«الصحراء مكان التباينات والدرجات القُصوى.. هُنا حيث يغدو
الفرق بين أيّ شيء وعكسه باهتاً ضئيلاً..»

يونس

القاعدة الأولى: ألا تنظر خلفك مهما حدث..

يقولون أن الأسد في الغاب نادراً ما تهرب منه فريسته إذا عزم اللحاق خلفها، لا لسرعته الخيالية، بل لالتفاتها الدائم خلفها وهي تهرب، ذلك أنها تنقص من سرعتها الثلث بينما تنظر للوراء، لو أنها ركضت في خط مستقيم دون أن تلتفت حولها لم استطاع أي حيوان في الكون أن يلحقها، قانون الغاب. هذا القانون يسري أيضاً في الصحراء. أقول أنا ذلك. أو أعتقد، أو لعلي سمعته من قبل في حديث أحدهم. من يدري! المهم أنني مؤمنٌ بما أعتقد وساطبق اعتقاداتي هذه مهما كلفني الامر. هذا أفضل لي ولهم.

اخترت أن أؤجل طرح تلك القواعد عليهم حتى تنزل القافلة. يوم مسير اخير وسنفترق عنها للابد. لا باس. لا بد ان انتظر. هذا يجعلنا في مامن أكثر ليس إلا. لا اعتقد ان احداً منهم قد يعترض على اي من قواعدي هذه سوى دالك: هذا البدوي. لا اثق به حتى الان. اشتم رائحة غدر تنبعث من خلف وشاحه من قبل حتى ان تنطلق. لم ارى وجهه منذ ايام سوى مرتين على الاكثر وعلى استحياء. منذ ان غادرنا مع القافلة وهو يضع ذلك الوشاح الاسود على وجهه إلا من عينيه حتى كدت انسى شكله. لا اعلم السبب؟! أيكون خائفاً، ام انه يفضل الا يتعرف عليه احد من افراد القافلة في حال حدث شيء ما. لا ادري. ولكن عينيه الحادتين هاتين تفضحانه دائما. فيهما شر غريب، ألحظه عن كثب منذ أن انطلقنا. لابد ان في هاتين المحجرين تكمن مقلتان تخفيان خلفهما الكثير. في الحقيقة لم تسمح لنا الظروف ولا الوقت بأن نتعرف على بعضنا البعض بشكل ملائم، ولكن من الان فصاعدا ليس امامنا سوى الوقت، وسيرى كل منا ما يخفيه الاخر في جعبته.

لم أسمع من قبل عن توافق حدث بين بدوي ومزارع. في مجتمعنا هما بيئتان مختلفتان حقاً. تلفظان بعضهما البعض باستمرار، حتى في حكاياتنا

الأسطورية غالبا ما يكون هناك نزاع من نوع ما. ربما لهذا السبب أنا لا أثق به حتى الآن برغم أني لم أر منه سوءاً في بضعة أيام قضيناها سوياً على الطريق مع القافلة. ما أتركه حقًا ان احداً قبلي لم يمتلك الشجاعة الكافية لاختراق ذلك الحاجز الهلامي من الكراهية بيننا. فكيف لي ان اخترقه انا أو أختزل الحقيقة عابراً بذلك عشرات الأجيال بمن سبقونا. على العكس الآن وفي هذه الظروف بالذات انا في حاجة ماسة لأي شيء يبقي تلك المسافة من الضغينة بيننا كما هي ولن يضر إن زادت قليلاً. ربما في وقت آخر وفي ظروف مختلفة قد اعيد النظر كليا في تلك المسألة. ولكن ما اعرفه حتى اللحظة ان الرحالة سيبقى ابن الصحراء والمزارع سيبقى مزارع وإن كان سيد صحراء. وهو بدوي رحالة وانا من بيئة الواحات. لهذا السبب ايضا تعمدت ان تبقى خمسة افراد فقط في هذه الرحلة. اخترت أنا منهم اثنين واختار هو واحدا – إبراهيم مرشد الرحلة – اعلم ان هذا العدد قليل ولكن هذا الامر لي لتبقى دائماً الكفة مائلة نحوي في أي قرار أتخذه، فيكون لنا الغلبة.

مختار ايضا. هذا اللقيط الاربعيني حمال الرحلة الذي جلبته أنا، لا يرتاح له. توقعت ذلك من قبل ان ننطلق. اراد احيانا يرمقه شذرا بنظرات تحمل أبلغ معاني الحقد والاستحقار وتقطر مقتا وكراهية. استطيع بسهولة أن أستشف ذلك في عينيه. كونه- كما يقولون- ثمرة علاقة محرمة بين بدوي ومزارعة من أهل القرية، هذا لا يريحه على الإطلاق، لذا فهو يكره كل البدو بمن فيهم مالك، وهذا يريحني بعض الشيء.

في الحقيقة عندما جاءني مالك في المرة الأولى يعرض علي فكرته تلك لم اتردد كثيرا. يومها دخل علينا الجامع وقد كنا جلوس في حضرة الشيخ إدريس نمارس طقوساً دينية اعتدناها، وجلس إلى جواري. كنت اشاهده عن كثب قبلها في المسجد يتابع بعض الدروس للشيخ إدريس ولكنه اختار دائما أن يجلس منفردا خارج نطاق الحلقة. بعدما انتهينا من صلاة العصر في ذلك اليوم دنا مني وهمس في أذني قائلاً:

-يا شيخ يونس، أريدك في أمر هام، سانتظرك في الخارج.

وغادر دون حتى أن يترك لي مجالاً للنقاش أو ينطق بكلمة أخرى.. رمقته بنظرة متفحصة وهو يغادر قبل أن ألحقه بعدها بدقائق. كان واقفاً في الخارج مسنداً ظهره إلى حائط من حوائط الجامع عندما رآني أمشي، فتقدم نحوي. سألته حينها وأنا أحاول ضبط فضولي الذي صار يعتمل في داخلي جراء هذا الموقف الغريب:

-ماذا هناك يا مالك؟

-أردتك في أمر هام.

-أترى أن الأمر هام لدرجة أنه لا يحتمل انتظار خروجنا من الجامع؟!

جذبني برفق من منكبي وسرنا مبتعدين، قال لي حينها وابتسامة مشفرة ترتسم على محياه:

-لا تقلق، أردت فقط أن أعرض عليك فكرة كنت أعمل عليها منذ وقت طويل..

أقلقني أكثر غموضه في حين أني لم أفهم شيئاً.. قال موضحاً:

-أتذكر تلك القافلة التي نزلت بقرية (المعمورة) منذ عامين قادمة من واحة «سيوة»؟

-سمعت عنها..

-أتذكر ما أشيع آنذاك بين أهل القرية؟.. حكاية انتشرت عن أن تلك القافلة عندما عبرت بمحاذاة وادي «جوف» وجد بعض أفرادها ما يدل على وجود الذهب هناك.

-ماذا تقصد؟!

-أنا على يقين أنه يكمن هناك بالقرب من هذا الوادي منجم أو مناجم من الذهب تختبئ في أحد الجبال.

-من قال لك أن ما وجدوه أصلاً هناك يعني وجود الذهب؟!

-يا شيخ يونس، أنا بدوي وأعلم شيئاً ما أقول. الذهب ثقيل ولا يظهر أبداً في الصحراء إلا في هذه الصورة. عندما تنفصل منه كتل صغيرة من عروقها الجبلية في المناجم وتنقلها الأنهار تتركز في الرمال والحصى نتيجة ثقلها النسبي في صورة رواسب كما وصفوها

جذبني في حديثه الأخير يعنه في نفسه الزائد. هكذا هم البدو، دائماً ما يكون لهم وجهة نظر أصح عندما يتعلق الأمر بالصحراء. ربما قد تخالف المنطق قليلاً ولكنهم في النهاية ينتصرون.

قلت له محاولاً التصنع بعدم الاهتمام:

-وماذا إن كان الذي وجده أهل تلك القافلة ليس سوى رواسب غرينية من معادن أخرى وليست ذهباً. أو ربما هي حكاية أسطورية مختلقة من الأساس؟

-لا أعتقد ذلك..

ثم سكت قليلاً كأنما يعيد صياغة ما يدور في رأسه وأردف:

-حتى وإن كانت تلك حكاية أسطورية. فما الحكايات الأسطورية سوى جذور لحقائق لم نكتشف بعد.. ألا ترى أن هذا يستحق منا بعض التفكير وقليلاً من المجازفة؟

توقفت فجأة، عقدت حاجبي دهشة عندما أدركت ما يرمي إليه..

هذا البدوي (الغريب) يريدنا أن نرحل بحثاً عن كنز مجهول في الصحراء!

****

مالك

ينعتني دائماً بالغريب..!

يصلني أحياناً أنه يقول ذلك كلما أتت سيرتي أمامه. ربما لأني بدوي رحالة وهو من أهل الواحة. لا أعلم حقاً من فينا الغريب؛ أنا أم هو؟!

المزارعون في هذه الواحة لا يحبون البدو، حقيقة معروفة لا تحتاج لإثبات. يكرهوننا للا شيء. يعتقدون أننا دخلاء عليهم بينما هم سكان الواحة الأصليون. يرون أنه من الصعب جداً على ذهن دخيل مثلنا - كما يقولون- أن يفهم معتقداتهم أو يتعامل معها. ما هي معتقداتهم إذن؟

منذ أن جئت هنا صغيراً وأنا أرى لا شيء سوى كراهية عمياء تتملكهم تجاهنا. ذلك الكم من الحقد والكراهية والضغينة الذي يكنونه لنا غير طبيعي. لو أننا لم نزل نقبع تحت إمرة قانون واحد يحكمنا لقلت أننا انتبهنا منذ زمن، أو هجرنا من بيوتنا (عنوة) أو تركونا نموت جوعاً. مع ذلك، ما زالوا أحياناً كثيرة يمتنعون عن مشاركتنا محاصيلهم. ولكنهم في النهاية يلجؤون إلينا عندما يحتاجون إلى دليل في رحلاتهم الصحراوية.

الشيخ يونس لا يختلف عنهم كثيرا، هو كذلك لا يرتاح لنا ولكنه على الأقل يسمعنا.

عندما اخترته هو بالذات ليشاركني الرحلة لم اختره (لنفسه)، بل لأنه وحيد مثلي، ولأنه في النهاية مزارع، وجميعهم يتملكهم الطمع وإن أبدوا عكس ذلك. وقد يكون في ذلك سبب آخر كونه أعقلهم بعد شيخهم - المبجل- إدريس كما يدعون، لا أدري.. في الحقيقة هذا كله لا يشغلني، ما يشغلني حقاً في هذه الرحلة العصيبة هو «مأمون» زعيم الطوارق.. كيف سيكون الآن بعد كل هذا الوقت الذي مضى.. ثلاثون عاما انقضت، لا بد أنه قد شاخ وأصابه الوهن.

مازالت سحنته المخيفة تلك محفورة في وجداني لا تفارقني أبداً. تزورني كل ليلة كأنها البارحة؛ عيناه الذابلتان الناعستان (الفاسيتان) ووجهه الشاحب الذي يذب الرعب في النفوس.

لم أنس وقت أن زارنا ذلك الصباح هو ورجالاته، كما (كانوا) يلقبونهم في القرية الحاشية، يومها ساد بؤس عام. الطوارق عادة أو الرجال الزرق:

الأمازيغ الأحرار كما يسمون هم أنفسهم، عندما ينزلون بقرية لا يجلبون معهم سوى الخراب.. يدعون انهم أسياد الصحراء يمثلون صورة البدوي النبيل سيد الصحراء المبجل، يتباهون بأنهم بيض خلف اللثام، ويدعون أنهم مستقلون بقوة. في الحقيقة هم ليسوا سوى لصوص أوقطاع طرق.

سبق زيارتهم لنا في ذلك العام موسم قحط شديد غزا البادية أنذاك فقضى حتى على ما فيها من كلأ وآجام. شاع بين البدو عموما أن الماء لا يكون بعيدا أبدا في الصحراء، ولكن في ذلك الموسم بالذات انتفت تلك القاعدة، جفت الأنهار وذبلت معها النباتات حتى أن قبائل البدو في الصحراء اجتمعوا مرارا لإيجاد حل لتلك الكارثة. أتذكر حينها أن كبير أعيان قريتنا الشيخ «مقصود» جمع زعماء قبائل البدو وكان قد استقدم أحد العالمين بأثار الصحراء يدعى عتريس، سأله حينها وقد اعتراه الهم من موت ثلث ماشية القبيلة جراء هذا القحط الرهيب:

-يا عتريس، ما كمية الأمطار المطلوبة لإنبات الكلأ؟..

أجابه عتريس بشيء من الخيبة:

-لا فائدة منها إن لم تنزل بهذا القدر..

وأشار إلى مرفقه.

-ما المدة التي يجب أن تمطر فيها لتفعل ذلك إذن؟

-وابل غزير كاف، فذلك سينبت كلأ أفضل من لاشيء، لكنه سيذوي في العام نفسه إن لم تهطل أمطار أخرى. ولكن إن هطلت أمطار جيدة حقاً يوماً أو ليلة كاملتين فسيبقى الكلأ أخضر لثلاثة أعوام أو أكثر.

ضربت إجابة تلك الشيخ مقصود في مقتل، اكفهر وجهه وأدرك مدى عظم المصيبة القادمة، الماء الذي لا يكون بعيداً أبداً في الصحراء هو فقط يتمناه الآن لليلة واحدة، قحط الماء هذا سوف يجلب المصائب..

دنا إلى والدي وقد كان أحد أعوانه المقربين وهمس في أذنه ببضع

كلماتٍ لم أتميزها. شاهدت والدي حينها وقد استحالت تقاسيم وجهه إلى أخرى، كأنما أحسست بغصةٍ تمسك قلبه. وشعرتُ بعبرة اتكأت عند مدمع عينيه تبحث عن مخرج، لكنه أبى أن يظهرها أمام رجالاته فخرج مسرعاً.. البدو الأعيان لا يعرفون البكاء أمام العامة، فتعمدت تعمثها منذ الصغر وما زلت أحتفظ بها.. هكذا ثار همس أبي والشيخ مقصود حفيظة معظم قبائل البدو الحاضرين فارتفعت همهماتهم بالتدريج. كأنهم بغشمهم هذا كانوا غير مدركين حقاً بحجم الكارثة الحقيقية المقبلة. هنا فقط وبعد أن ساد المجلس هرج ومرج لدقائق جراء تداخلاتهم العشوائية نطق الشيخ مقصود أخيرا بالحقيقة. صارحهم هذه المرة قائلا بصوته الأجش وقد لفتت نبرته انتباه جميع من كانوا في المجلس:

-من منكم لا يدرك حقيقة ما نحن بصدده الآن فليغادر دون جلبة..

صمت الجميع فجأة وأردف:

-ما لا تدركونه حقا أننا على مشارف كارثة حقيقية قادمة، وأنتم هاهنا تتصارعون. القحط والجفاف أصاب البادية جميعها. لا أمل لنا في أن ننجو من تلك المصيبة إلا إذا اتحدنا جميعا. ارتفع صوت ينادي من الخلف قائلا:

-وما دخلنا نحن بتلك المشكلة، عندنا من الماء ما يكفينا لعام أو أكثر، سنتشاركه مع القبائل الأخرى إن اقتضى الأمر. المشكلة تكمن في أن ماشيتنا تموت من قلة الطعام لا الماء، فهل لديكم ما يكفيهم من كلأ لمدة عام على الأقل؟!.. اجابة صوت آخر:

-ولماذا لا تستخدمون ماءكم لإنبات الأرض؟

-إن تشاركنا الماء مع الماشية فلن يدوم لشهرين على الأكثر!

ارتفع صوت الشيخ مقصود صارخا بحزمٍ هذه المرة:

-مشكلتنا ليست في الماء أو الغذاء، مشكلتنا الحقيقة تكمن في الطوراق!..

هنا دوى صمتٌ رهيب.. ثم نظر بعضهم الى بعض في وجل وكأنما صاعقة أصابتهم على حين غرّة. لكأنهم في نظراتهم تلك لم يبرزوا ذلك الجانب من الأزمة من قبل حتى أظهرَهُ لهم السيخ مقصود أخيراً..

لم يعترض أحد لبرهة. وأردف السيخ مقصود قائلاً:

-الطوراق عندما ينزلون بقوم لا يرحمون أحداً لا بنصاع لهم.

-وما دخلنا نحن والطوارق؟!..

قالها أحدٌ من الخلف بصوت وجل..

-ألم يصلكم ما فعلوه من قبل في قبيلة مز عندما ضربت هذه الأزمة البادية منذ أعوام.. قتلوا نصفهم وهجر الباقون. فقط لأجل الماء.. أتريدون أن يصيبكم ما اصابهم؟!

استمز الصمت لحظات أخرى قبل ان يمزقه احدهم قائلاً من الخلف بصوت حاول جعله متماسكا:

-ماذا سنفعل إذا. هل سنتركهم يغتصبون ارضنا؟!

عارضه شخص آخر فقال:

-لن نترك لهم شبراً واحداً من أرضنا..

قبلها بسنوات كان قد أشيع ان الطوارق نفذوا هجمة مباغتة على قرية <الغز> يفتشون عن الماء. هكذا هم لا يظهرون إلا حينما تجل المصائب أو أنهم يجلبونها معهم. انتشرت الأقاويل آنذاك انهم عندما نزلوا بتلك القرية رفض بعض اهلها الانصياع لهم بالكشف عن مصادر تقويهم الصخرية، لذا كانوا يعتقلون الأشخاص عشوائياً بطريقة همجية، يقيدون منهم الرجل، لا ماء انما أجاجاً فقط ثم يطلقونه بعدها بأيام ويتبعونه حتى يجدوا ذلك الثقب الصخري فيحفروا بئراً هناك. وصفت طلعتهم تلك بأنها الأعنف من بين كلّ الطلعات التي نفذوها في الصحراء، قضوا فيها على نصف القرية وشرّد الباقون.

في العادة عندما يزور الرجال الزرق قرية ينزلون ببيت كبيرها، يمكثون فيه لأسابيع يستقبلون الهدايا والمجاملات من أهل القرية ويوليهم الجميع الاهتمام والرعاية، يعتبرونها هم جزية مفروضة على السكان وفي النهاية يعودون لديارهم محملين بكل شيء، هذا طبعاً في الظروف الطبيعية.. ولكن هذه المرة البحث ليس عن العسل أو الدخن أو الملح بل عن الماء مصدر البقاء، هذا بالتأكيد ينذر بمخاطر محتملة الحدوث ان لم يجلب الخراب الكلي..

-يجب ان نحمي نقوبنا الصخرية مهما كلف الأمر. هذا لحياتنا اولاً ثم بعد ذلك سوف نجد حلا لموت الماشية..

قالها الشيخ مقصود وغادر.. تركهم تائهين غارقين في مستنقع من الأفكار، كل يصيغ الفكرة حسبما يراها من منظوره الشخصي، حتى أنهم جميعاً صمتوا مرة واحدة دون أن يدركوا ذلك..

كان أبي يقف منزويا في الخارج يطالع المشهد عن كثب..

****

يونس

بالتأكيد هو مجنون.. أو كنت أظن أنا ذلك في البداية، حتى عثرت في نفسي على رغبة ملحة تدفعني على الموافقة. لا أدري ما السبب.. قلت في نفسي ما المانع. أو ما الذي سأخسره تحديداً اذا وافقت؟!. فتشت في حياتي سريعاً علي أجد ما قد يدفعني على الرفض. لم اجد شيئا يستحق التضحية.. فقط وجدت كهلاً على مشارف الستين لا يرث شيئاً ولن يورث أحداً!..

أتذكر أني سألته حينها عن سبب اختياره لي أنا بالذات دوناً عن غيري لأشاركه هذه المغامرة المحفوفة بالمخاطر، قلت له:

-لماذا أنا بالذات؟!. لماذا تختارني أنا بالذات لهذه الرحلة وأنت تعلم أننا

شئان.. أقصد أنك بدوي وأنا...

أعجبتني صراحته حين قال بعض اللفظ:

-ببساطة يا شيخ يونس نحن الاثنان يجمعنا شيء مشترك واحد، وإن كنا مختلفين في أشياء كثيرة، هو أننا نحن الاثنان لا نعول أحداً، أقصد أنه لن يبكِ علينا أحد إن لم نفقد أبداً

-ولكن..

-اعلم ما ستقول. كلانا اعقل من ان يفكر بتلك الطريقة. أنا لا أنكر حقاً أن المعظم من أهل القرية من المزارعين ما زالوا ينظرون لقبائل البدو القديمة التي تقطن القرية على انهم دخلاء وهم من السكان الأصليين. ولكن ما فائدة هذا كله.. انظر إلى نفسك، ما فائدة أن تكون انت من أهل الواحة حقاً وأنت تشعر انك غريب فيها؟!

بالطبع هو محق فيما يقوله لن يفتقدني احد اذا ان غادرت. ربما حتى لن يشعر بغيابي احد من أهل الواحة. منذ سنوات كثيرة رحل ابي، تبعته أمي بشهور قلائل. وقتها انتشر (وباء) مميت أودى بحياة كثيرين من أهل الواحة. لسوء حظي كان من بينهم والداي. أسأل نفسي كثيرا منذ ذلك الحين لماذا لم أتزوج حتى الآن. لماذا فضلت دائما ان ابقى وحيدا معزولا وألا اعول احداً؟!.. لماذا لم أجلب أحداً يؤنس وحدتي؟!.. اهو نصيبي الغابر أم حظي التعس.. أم أنني ببساطة اعتدت على الوحدة؟!

ثمة سبب أهم أعتقد انه جعلني أتراجع في كل مرة. ربما لخوفي من المجهول. من أن يطرق الموت باب قريتنا من جديد ويأخذ معه هذه المرة من هو من صلبي كما فعل بالضبط من قبل مع الشيخ إدريس. أو ربما يأخذني أنا منهم فيضيعوا من بعدي كما كدت أنا أضيع لولا الشيخ إدريس. ولكن لمتى سيعيش الشيخ إدريس حتى أبقى على اطمئنان أن ثمة أحد هنا قد ينتشلهم من الضياع؟.. كم سنة أخرى سيعيشها هذا الكهل، بل كم يوما آخر سيحياه بعد ان شارف على التسعين وقد أفقده الموت اعز ما يملك هو الآخر. ربما لهذا السبب بالتحديد لم أتزوج حتى

اللحظة.. بل أنه في كلّ مرّة راحت تختمر هذه الفكرة في رأسي، وقف هذا السبب عائقاً بيننا على مسافة كافية من أن يجعلني أتخذ قراري.

علامَ سأقلقُ إذن إن رحلت؟!

الشيخ إدريس هو الوحيد في هذه الواحة الذي غد يعتريه الهم إن رحلت وتركته، يتوسم في ولده الوحيد "الذي فقده" قبل عقدين من الزمان على يد حملة شرسة من جنود الاحتلال الإنجليزي زارتنا من العاصمة، وقتها حاصروا الواحة لمدة اثنين وعشرين يوما قبل أن يقتحموها ويردوا كثيراً من أهلها قتلى، من بينهم سليم ولد الشيخ إدريس.

كانوا يستجيبون حينها لنداءات مأمور الواحة الكثيرة التي أرسلها مرارا يخبرهم فيها انه لم يعد بمقدوره السيطرة على اهل الواحة، خاصّة بعد أن وصلنا هنا ما يدور في العاصمة هناك من ثورة الجيش المصري على الملك والإنجليز بقيادة أحمد عرابي، اصبح التعامل معنا قاسياً كما قال وأرسل حينها لقادته يستنجدهم.

استقوينا حينها حتى اننا اصبحنا نمتنع عن تسليم محاصيلنا الزّراعيّة (الضرائب)، والملتزم منا في احيان كثيرة كان يؤخرها أو يقدمها منقوصة. قادنا في عنفوان ذلك الحراك الشيخ ادريس، حاولوا كثيرا دحرة فلم يثنوه، ثُم بعد أن فشلوا في ذلك رأوا في استبداله من زعامة الواحة ضرورة قصوى، ولكنهم فشلوا أيضاً في كُلّ مرّة حاولوا فيها اختراق صفوفنا بعد أن التحم أهل الواحة جميعهم ضد القسم والمأمور ورفضوا تسليم الشيخ ادريس أو خيانته. لم يجدوا بُدّا حينها إلا أن يفجعوه في ولده فقتلوه واحرقوا قلبه.. بعثوا لنا حينها جيشا من الإنجليز قوامه الف جندي، وصلوا سريعاً ودكّوا الواحة دكا.

تحديات كثيرة واجهتهم بعد تلك الحادثة، ازدادت خسائرهم المعنوية أكثر وإن كانوا قد دحروا الثورة هنا وهناك، أصبح في كلّ بيتٍ تقريباً ميت يبكيه أو فقيد يتحسر عليه،أهل الواحة غدوا كالجرحى في معركة لا تتسم بميثاقٍ للشرف، ليس لديهم ما يخسروه، أصبحوا مصعورين بشكل

مُخيف. هذا أرهق الإنجليز كثيراً حتى أنّهم رأوا في استبدال سياسة العُنف تلك التي اتّخذوها لسنواتٍ طويلة ضرورةً قصوى، أصبحوا أكثر ذكاءً وأقلّ عنفواناً. اتّبعوا سياسةً جديدةً أكثر عقلانيّة بأن أوغلوا بيننا البدو ليُشتّتوا كراهِيتِنا، حين أدخلوهم واحتنا هُم بذلك نجحوا في تقسيم كراهِيتِنا لهُم، أصبحنا هُنا نكرهُهُم بمُعدّل أقلّ مِمّا نكرهُ هؤلاء البدو الهمجيّين.

بعد تلك الحملة انكسرت شوكتُنا.. انزوى الشيخ إدريس على نفسه في حين أصبحوا يجمعون مِنّا ضِعف المحاصيل التي كُنّا نُسلّمُها. لم ينفع أهلَ الواحةِ حينها شعارات الشيخ إدريس الرّنّانة التي كان يُحرّضُ بها دائماً ضد الاستعمار، لم يحتمِل تلك الكسرة التي أصابتهُ بعد موت ولدهِ الوحيد، أوكل إليّ إدارة جمع الضرائب وانزوى هو على نفسه في الجامع ينمُّ المُصلّين ويُلقِن الدروس الدينيّة.

خلال سنوات أصبح الوضع أكثر هدوءاً هُنا في الواحة، نحنُ نقعُ في أوّل طريق القوافل المُتّجهة غرباً، لذا كانت حملات الاستعمار يمرّون بنا أولاً ولكنّهم لا يتوقّفون عندنا. يتّخذون طريقهم غرباً ليجمعوا المحاصيل من الواحات الأخرى، ثُمّ عندما يعودون يجدوا أنّهم قد تحصّلوا على ما يكفيهم وزيادة، لذا في أحيانٍ كثيرةٍ كانوا لا يتوقّفون عندنا، يعبرونا بسلامٍ عاماً ثُمّ يأتون في العام الذي يليه ليأخذونها. هكذا استمرّ الوضع لسنوات ساد الهدوء الواحة، لا مجال للانتفاض الآن، بعد كُلّ تلك السنين التي مرّت وكُلّ هذا الذي حدث..

لماذا إذن لا أغادر؟!

ما يُقلقُني حقّاً حتى الآن هو السّبب الحقيقي لاختيارهِ لي أنا بالذات لأشاركهُ الرّحلة. أعتقِدُ أنّني لم أقتنِع بمُبرّراته تلك التي عرضها قبل أن نُغادر، بأنّي وحيد لا أعول أحداً، هي نجحت في جعلي أنا أتّخِذُ القرار بالمُغادرة ولكنّها لم تُقنِعني أبداً، هُناك بالتأكيد سببٌ آخرٌ أجهلهُ وهذا ما يُقلقُني حقاً ويبعثُ في نفسي الوجل. رُبّما قد يكون اختارني لكوني

أستطيع أن أقنع أي أحدٍ من أهلِ الواحة أن يُشارِكنا الرحلة دون أن يُفشي سرّنا؟!.. لا أدري.

حينها عرضتُ عليه مُهلةً لأفكّر في الأمر، في الحقيقة كنت قد عقدت العزم في نفس اللّيلة أنني راحلٌ، ما ساهم في إقناعي أكثر أنه أخبرني بأنه وجد المرشد المُناسب للرحلة- إبراهيم- وأننا قد نُغادر خلال أيّام غرباً مع القافلة التي ستنزل في قرية (المعمورة). اخترت أن أرسِل له مُختار – حمّال الرحلة - بعدها بيومين يُعلِمُهُ بمُوافقتي حتى أمتصُ حماستهُ.

وها نحنُ ذا الآن نسير نحو المجهول وحدنا في الصّحراء بعد أن غادرتنا القافلة لتوّها.

****

ياسين

يقول العرب أن كُلّ بدويّ يسير في الصحراء يعرف الحجر الذي يحُدُّ أراضي قبيلته. أتمنى حقاً أن ينطبِق هذا القول على إبراهيم، مُرشد الرّحلة، وإلا هلكنا جميعاً هُنا في هذه الصحراء القاحلة. اليوم تركتنا القافلة وبتنا (وحيدين) نسير نحن الخمسة في الصحراء هائمين. باستثناء عصا الدلالة الوحيدة وغير المألوفة التي صادفناها قبل يومين على الطريق وقد سفعتها الرّمال لم يكُن للحدود أثر. لا أعلمُ أين نحن الآن أو كم تبقّى أمامنا من الوقت حتى نصل. أشاهِد إبراهيم أحياناً كثيرة عن كُثب وفي يده خريطة، يخُطُّ فيها، لم أكُن أعي تحديداً ما يفعلَهُ حتى اقتربتُ منه ذات مرّة وسألتهُ:

-ماذا تفعل يا إبراهيم بهذه الخريطة؟

أجابني ببساطة..

-هذه خريطة الرّحلة أملأ فراغاتِها، انظر.. هذه الخطوط الدّاكنة تعني

الدروب والأشكال الدائرية هُنا على طولها تعني مصادر المياه في الطَريق.

لمحت الخريطة بين يديه وقد كانت مليئة بالخطوط والألوان، لكُلّ خط ولون فيها معنى مُحدّد، لم تظهر أمامي أشكال دائرية سوى اثنتين أو ثلاثة على الأكثر رُسِمت مُتباعِدة على طول الطَريق. هذا أقلقني بعض الشيء، فسألتُهُ حينها مُستغرِباً:

-هذه الأشكال الدائرية القليلة تعني أنّنا لن نُصادِف سواها على الطريق. أقصد أنّه لا يوجد مصادر من المياه غيرها؟!

أجابني بابتسامةٍ واثقةٍ هذه المرّة:

-ما أملؤهُ أنا هو ما أعرِفُهُ حقّاً أو ما شاهدتُهُ من قبل خلال رحلاتي السابقة في الصحراء، وكلّ جديدٍ يُصادِفُنا أضيفُه على الخريطة.

-هذا يعني أنّك لا تعرِفُ بالتّحديد ما الطُرُقات التي سوف نسلُكُها في هذه الرّحلة، وبالتالي قد لا نعرِف أيّ العقبات تُصادِفُنا في الطَريق؟!

-الصحراء مليئة بالمُفاجآت ونادراً ما تبقى على حالها نتيجة العواصف والفيضانات.. لعلّنا نُصادِف مصدراً للمياه أو أكثر في أيّ مكان خلال مسيرِنا.. من خِبرتي في الصحراء، أقول لك أنّ ما يجِبُ أن نقلق حيالهُ حقّاً هو التغيُرات المُناخيّة وليست الطبيعيّة. أعني الحرارة المُرتفِعة أو البرد القارِس.

ما سمعتُهُ من إبراهيم جعلني أدرِك أن الصحراء دائماً ما تكون مكان التبايُنات والدرجات القُصوى، هُنا حيث يغدو الفرق بين أيّ شيء وعكسه باهتاً ضئيلاً. قد نكون في أوج القيظ وتهاجِمُنا موجةُ برد قارسةٍ كشتاء دزودتُدمُرُنا، أوقد نكون في الشتاء حين تلفحُنا نسمة هواء حارةٍ جدّاً لفترة طويلة تُردينا قتلى. في الصَحراء ما يجِب أن تقلقَ حيالهُ حقّاً هو المُناخ وليس المياه، هذا ما قالَهُ إبراهيم..

سألتُهُ حينها وقد راح القلق يعتمِلُ في داخلي:

-كم أمامنا من الوقت إذن حتى نصل؟.. أجاب:

-لا أدري تحديداً، رُبما شهرين أو حتى ثلاثة، حسب القدرة الجسديّة للجِمال والتغيُرات المُناخيّة التي قد تطرأ. وسألني بعدها:

-أتدري لماذا يُسمّي بعض الرّحالة الصحراء ببحر الرّمال؟..

أومأتُ له برأسي سلباً، فأشار لي إلى هضبةٍ عالية كانت بعيدةً عنّا بعض الشيء ثُمّ قال:

-أتدري.. هذه الهضبة كانت في يومٍ ما سهلاً مُنبسِطاً وقبلها كانت وادٍ سحيق.. على مدار عشرة أعوام قضيتُها على هذه الطّريق في الصّحراء كانت تلك الهضبة تنمو شيئاً فشيئاً أمام عيني حتى غدت كما تراها الآن جبلاً شامخاً.. عندما تهُبّ زوابع عاتية على البرّية تحمِلُ معها الرّمال وتنقُلُها مثل ماءٍ مُتدفّق، لذا يُسمّونها الرّحالة «بحر الرّمال»..

ما رأيتُهُ أدهشني حقاً، كيف لوادٍ كان هُنا أصلاً أن يتحوّل إلى جبلٍ بهذا الشُموخ، حقا أنّ الصحراء مكان التباينات القصوى، مكانٌ للسّرمدية وسرعة الزّوال، مكان كُلّ شيء ونقيضُهُ. هنا حيثُ يختبِئُ الموتُ خلف أيّ شيء بينما تنبعِثُ الحياة من كُلّ ذرّة رمال، الأمل يكسوه ألم فظيع، والتفاؤل الذي يشعُّ صباحاً من (وجوه) كُلّ الكائنات يغدو في آخر اللّيل غموضاً ويأساً غريبين.

قلقي من المجهول أعاد عليّ التسؤال من جديد؛ ما الذي دفعني إلى الموافقة على هذه الرّحلة المحفوفة بالمخاطر من الأساس عندما عرضها عليّ الشيخ يونس في بادئ الأمر؟!.. لا أدري، رُبما هو نفسُه الخوف والقلق ولكن من الوحدة. أعتقِد أنّني خشيت بعد أن يُسافر الشيخ يونس - وقد كان عزم على ذلك الأمر فعلاً وكان من الصّعب جداً أن يُثنيه أحد عن قرارٍ أخذَهُ- أن أجِدُ نفسي وحيداً مرّة أخرى في هذا العالم، ما يبعثُ على الدّهشة والحيرة حقاً أنّك مهما عشت في هذه الواحة من سنوات قد تجِدُ نفسك بين ليلةٍ وضُحاها غريباً عنها، خالجني هذا الشّعور من قبل كثيراً خاصّة بعد أن غادر والداي في رحلةٍ إلى الحج قبل عشرين عاماً ولم

يعودا أبداً، وقتها كان عمري لم يتجاوز بعد الثانية عشر، وجدت نفسي وحيداً غريباً في هذه الواحة حتى عثرتُ على الشيخ يونس، أو بالأصحّ حتى عثر هو عليّ، انتشلني من الضّياع وعاملني كولدٍ لم يُنجِبه، كان لي ونعم الأب، لم أكُن وحدي، كُنت أنا ومُختار – حمّال الرحلة - ربّانا سويًا وكبِرنا معاً.

ذات يومٍ أخبرني أنّهُ يحتاجُني معهُ في رحلةٍ إلى وادي جوف بحثاً عن كنزٍ مجهول مُختبئ هُناك في الصحراء فهو يثِقُ بذكائي حقّاً، عندما استغربت وسألتهُ عن السّبب حكى الحكاية ثُمّ أورد لي تفاصيلها كاملةً، لم يبخل عنّي بشيء منها، لذا عرض عليّ أن أرافِقهُ لأعينه وأحذّرهُ من احتمال غدر هذين البدويّين إن حدث ووجدوا الذّهب، فهو لا يثِقُ في البدو أبداً، ولكنّه في النهاية ترك لي الخيار وحدي. مُختار اختار أن يُرافِقَهُ دون حتى أن يُفكّر، يومها عرض علينا الفكرة أنا ومُختار معاً وقد كان يثِقُ في فِطنتي أيضاً.. أجابه مُختار على الفور:

-معك يا شيخ يونس. منْ لي سِواك في هذه الدنيا.

وجدتُ نفسي في مأزِقٍ من أن أرفُض أو أوافق بعد أن وافق مُختار بهذه السهولة، أربكتني مُوافقته السّهلة تلك ولكنّها في نفس الوقت قد تكون سبباً مُباشراً في الشّجاعة التي تملّكتني بعدها وجعلتني أتّخِذُ القرار في النهاية بمُرافقتِهم. لا أعلم، ولكنّي سألتهُ في مُهلةٍ أفكّر فيها، كُنت بنهاية اليوم قد عزمت الأمر على مُرافقتِهم، رُبّما كانت تلك الرغبة ليست مِلء إرادتي ولكن في الحقيقة أن أكون معهما على طريق موحِشة في الصحراء نموت فيها سويّاً خيرٌ لي ألف مرّةٍ من أن أعيش هُنا غريبا وحيداً ما تبقى من عُمري وفي النّهاية سأموت أيضاً.. على الأقل معاً في بحر الرّمال هذا سنتشارك كُلّ لحظةٍ حتى نهايتِها..

طلب منّي الشيخ يونس قبل موعِد الرّحلة بيومين أن أعدّ العدّة وأن أعين مُختار في تنظيم أمور الرحلة. بعد أن كُنّا قد استقرّينا على الجِمال كوسيلة للسّفر في الصحراء عوضاً عن الأحصنة أوالحمير، طلبتُ مِن

مُختار حينها أن يُبدِل الجملين ذوي السَنام الواحد اللذان جلبهُما مالك بجملين آخرين من ذوات السَنامين، فهي أضخم ووبرُها أقسى ويُمكِنُها تحمُل أعباء (أحمال) أكبر من ذات السَنام الواحد. أعتقِدُ أنّ تفاصيل (بسيطة) كتلك هي من تجعل الشيخ يونس يثِقُ بي دائماً، وهي التي في الغالب يُعوِّل عليها نجاحُ الأمر من عدمِهِ.

****

يونس

القاعدة الثانية: أن تجِنّ في الصحراء؛ ذلك يعني أن تُفارِق روحُكَ جسدك ببُطءٍ كئيب ومُمِل..

كلّما اتّجهنا غرباً كان القيظُ يزداد بشكلٍ ملحوظ، حتى الرياح في طريقِها من الشَرق إلى الغرب باتت تفقِدُ رطوبتها بشكل عجيب، لو فكّرتُ يوماً في أن تضعَ مُكعباً من الثلج هُنا في وسط هذه الصَحراء القاحلة وفي هذا الجو تحديداً لتبخّر ببساطة بدلاً من أن يذوب، هكذا أصبح الجو جافاً خانقاً كلّما أوغلنا أكثر نحو الغرب. أمامنا الآن ساعة واحدة على الأكثر حتى تغيب الشَمسُ كُليّاً ونستريح، الجو اليوم مُعتدل نوعاً ما عن ذي قبل، أفضل من الأيام الستة التي سِرناها في الصَحراء مع القافلة، بوادر من الضباب تلوحُ في الأفُق، نصحنا إبراهيم المُرشد أن نُخيم بعد أن تغيب الشَمسُ تماماً ونبيت ليلتنا هُنا حتى الصَباح، يكون حينها الضباب قد انقشع وعاد الجو إلى طبيعتِهِ. في الصحراء غالباً عندما يأتي الضباب لا بُدَ للقوافل جميعُها أن تتوقّف عن المسير، حينها يُصبح مجال الرؤية حرِجاً جداً، حتى الجمال في الضباب لا تستطيعُ تمييز مُستويات الانحدار بدقّة.

أنظرُ للأسفل أمامي فألمحُ مالك البدوي يمشي مُسرعاً وبثبات اعتادهُ، وكأننا ننطلِقُ للتو في رحلتنا، يمتعِضُ كلّما أتت سيرة التَوقّف أو الراحة لدرجة أنني بدأتُ أشعُر أنه يسعى خلف شيءٍ آخر دون الذَهب، فهل الذَهب سيطير أو سيرتحِلَ من مكانِهِ إن لم يُسرِع هكذا، أخبرني من قبل أنه يثقُ في قُدرة إبراهيم المُرشد لذا جلبهُ هو، قال لي أنّه الأفضل من بين

جميع المُرشدين في قبيلتِهِ وهو الوحيد الذي باستِطاعتِه أن يوصِلنا إلى مكان الذهب، ولكنني بدأت أشتمُّ رائحة أخرى تنبعث كُلّما رأيتُهُ يُسرع هكذا، تُثير حفيظتي، لا بُدّ أن شيئاً آخر سيحدُث في نهاية هذه الرّحلة العصيبة. أخيراً أزال الوُشاح عن وجهِهِ، استطعتُ أن أراه بعد أن أخفاهُ لأيّام حتى كِدتُ أنسى شكلهُ. ملامِحُه لم تتغيّر كثيراً عن أول مرّةٍ شاهدتُهُ فيها مُنذُ سنوات، فقط بعض الشيب غزا رأسهُ فزادهُ هيبةً. لا أعلم شيئاً عن أصولِهِ، فقط الذي أتذكّرُهُ عنه أنّه أتى شاباً يافعاً مع قبائل البدو التي استقرّت في واحتنا بعد الاحتلال الإنجليزي، هكذا رأوا هُم أنّ اختلاط البدو بالمُزارعين سيُطفئ لهيب حماسِنا، هذا ما قاله الشيخ إدريس قبل سنواتٍ وهذا ما حدث بالفعل. أفتقِدُ هذا الرّجل حقاً، حُبّي الشديد له جعلني أغادِر دون أن أودّعهُ حتى، أشتاقُه أحياناً كثيرةٍ، لم أكُن لأحتمِل تلك اللّحظات من الفُراق، كانت ستكون صعبةً جدّاً عليّ، بعد كُلّ تلك السنوات التي مرّت وهذا الشيب الذي غزا رأسي ما زِلتُ أعي معنى الفقد، ما زال الحنين يسرحُ بأناملِهِ المبتورة على خافِقي، يُدغدِغُني فيجعلُني أنتشي لحظةً وأكتئب أخرى. ما زِلتُ لم أفقد بعد صفات الإنسان الفِطريّ، تشوّهت في داخلي أعضاءٌ كُثر ولكنّني ما زلتُ إنساناً يحُسّ ويشعُر. من فرط قسوة الأيام التي عِشتُها هذا جعلني أعي تماماً وقع تلك الكلمات على القلوب، كلمات الفُراق.. ماذا يعني لك أن تُفارق فجأةً شخصاً عزيزاً على قلبك اعتدت على وجوده حولك لسنواتٍ، لهو أمرٌ قاسٍ حقاً ومُخيف. بعثتُ له رسالةً مع صبيٍّ من أهل الواحة، طلبتُ من ياسين أن يكتُبها ويُوصي بإرسالها بعد يومين من انطلاقِنا، وهكذا فعل، لا بُدّ أنّه الآن قد قرأها، أرجوه في نفسي أن يُسامِحني إن لم يتقبّل أعذاري.

ياسين أيضاً هذا الشاب اليافع الذي انتشلتُهُ من الضّياع قبل سنواتٍ، هو الآخر يُربِكُني. أراه بدأ يفقِد صوابَهُ شيئاً فشيئاً مُنذ أن غادرنا، لم يعتد من قبل على مِثل هذه الظّروف العصيبة من التّرحال. ظروفٌ قاسية أجبِر على تحمُّلها وهو صغير، أعلم يقيناً أنّه لولا وجودي في الواحة بجانبه لجُنّ من فرط الحنين لأشياءٍ لم يعُد لها وجود، هذا الصبيّ ما زال يافعاً وأمامه الحياة مُقبِلة، تمنّيتُ في نفسي ألا يُوافِق على مُرافقتي في

الرّحلة، ولكنّني في نفس الوقت لم أحتمِل فِكرةَ أن أغادر فجأةً دون أن أعلِمَهُ هو الآخر فينتكِس أو يُصيبه العجز. جمّد أنفاسي قبل أن ينطِق أنّه مُوافق. أردتُه بجانبي دائماً ولكن في ظروف أفضل من تلك، هذا ولدي الذي لم أنجِبهُ. أخافُ عليه حقاً من غدر الأيام بعد أن أفارق الحياة، لا أعلم ما الذي قد يفعلَه من بعدي. أراه وجِلاً دائماً. لو كان الأمر بيدي لجلبتُ له جملاً يمتطيهِ وحده بدلاً من أن يتشارك هو ومالك ومُختار الجمل نفسُهُ. في الحقيقة لم نستطِع تدبُّر أكثر من جملين في هذه الرّحلة، نصحنا مالك أيضاً بذلك حتى لا نلفِت الأنظار في الواحة ونحن نُغادِر، لذا أمرتُ أن يتشاركوه ثلاثتُهُم، لو كان الأمر بيدي لأعطيتُهُ جملي هذا وسِرتُ أنا على قدمي.

المُرشدون غالباً لا يمتطون الدواب في الرّحلات، يسيرون بمُحاذاتِها على الطّريق، هذا سهّل مُهمّتنا أكثر بأن جعل ثلاثة أنفارٍ فقط يتشاركون جملاً واحداً بدلاً من أن يكونوا أربعة فيتعبوا ويهلك الجمل. عندما طلبتُ من ياسين أن يُجهّز أمتعة الرحلة اختار أن يجلِب معهُ لفائف تبغٍ في علبٍ صغيرة، يقول أنّها تصلح هدايا لشيوخ القبائل التي قد ننزِل عندهُم في الطّريق، أراه يُتقِنُ تلك التفاصيل الصغيرة حقّاً، رأى أيضاً أن نُبدل تلك الجمال ذوات السّنام الواحد بذوات سِنامين، يقول أنّها أقوى واحتمالُها أكبر وتأثير دُوار البحر الذي يُصيب الرّاكب منها أقلّ. لم يكُن من السّهل علينا أن نجلِب واحدةً كون وجودِها نادِر هُنا في أفريقيا، مالك استطاع تدبُّر اثنين منها، لا أعرف كيف ولا يهُمُّني أن أعرف..

أتعبتنا هذه الجِمال حقاً، مُنذ أنْ غادرنا القافلة وهي تئِنّ، أسمع رغاءها عن كُثب، تكرهُ أن تسير مُنفردة، إن كانت حتى الجِمال ترفُض أن تُتابِع سيرها وحيدةً، فكيف بنا نحن الخمسة في هذه الطّريق الموحِشة. لا يتراءى لي أيّ شيء حتى الآن يدُلّ على حياةٍ أويبعثُ على الطمأنينة، نسير هائمين نحن الخمسة بمفردنا في طريقٍ طويلة بدأتُ أشُك في نهايتها، متى تنتهي إذن..

هل تنتهي الصحراء حقاً حين تظهرُ أولى الأعشابِ الذّابلة، أو حين تظهرُ

آجام أو رُبَما بِضعُ شُجيرات في المكان؟! كيف لهؤلاء البدو أن يقطعوا كُلَّ تلك المسافات الشاسعة في الصحراء دون أن يُصيبهُم القلق والتوتُّر، كيف لهم أن يعيشوا هُنا أصلا. لم يتراءى أمامي مُنذُ أن انطلقنا سوى جفاف، أو بالأدقِّ مستويات مُتغيِّرة من الجفاف، أيكون هذا دليلَهُم في رحلاتِهِم الصحراويَة، يُميِّزون الصحراء من جفافِها، يقولون مثلاً هُنا الجفاف أقل بِمِعدَل كذا من هُناك فيعرِفون الطَريق. لا أدري، بدأت أقلقُ حقّاً..

صوتُ جملِ ياسين يطِنُّ في أذُني من جديد، أظُنُّه هذه المرّة أطيط من تزايُدِ الحِمل فوقه، يجِب أن نتوقَّف الآن لنرتاح، فها هو اللّيل قد غزا وراح ينسِجُ خيوطه في الأفق باحكام، يُنادي بالظَلام..

أسمعُ صوتاً الآن.. أظُنُّه صوتُ إبراهيم المُرشِد، يُنادي أخيراً أن نتوقَّف..

****

مالك

الليل في الصحراء فريد من نوعه، فهو يكشف حقاً ما يبدو عليه باقي الكون من كوكبنا الضئيل هذا ويذكرنا به. قالوا قديماً أنَّ الصحراء كانت منذ قديم الأزل الملاذَ الأخير لغريبي الأطوار، يخرُجُ رجُلٌ فجأةً من مقبرة الشيطان فاقداً الذّاكرة ويُنادي:

لقد جاء الموتُ ليبقى، لا سبيل لك في أن تبقى أو تنتقِل إلى مكانٍ جديد..

ثُمَ يرحل إلى مكانٍ آخر ولا يزالُ يُردِّدُ عِبارته تلك حتى يأخُذَه الموت على غفلةٍ.. أظُنُّها أسطورةً، أرادوا بها أن يُخيفونا وقت كُنّا صغارا، رُبَما من ابتدعها في الأصل كان طارقيّ، قالها لتسكُن قلوب الضُعفاء مِنّا فيُصيبُنا الوهن أجمعين.

أرى الخوفَ ينهشُ في قلوبِهِم بلا هوادةٍ كُلَّما أوغلنا أكثر في الصَحراء، يزدادُ يقيني بذلك كُلَّما سِرنا مُبتعدين عن الواحة، أظُنُّه قد يقضي عليهِم تباعاً إذا استمرّوا هكذا، رُبَما يكون أوَّلَهُم في ذلك ياسين، هذا الشاب

اليافع الرّاقد هناك على بُعدِ خطوات منّي. سيصحو بعد قليل ليتسلّم نوبة الحراسة الأخيرة من مُختار. أراه يتطلّعُ إلى السماء كُلّ ليلة حتى آخِرها، وكأنّه يُحصي النُّجوم في الأفُق البعيد، أحسُّه دائماً وجِل، كُنّا كُلّما خيّمنا في مكانٍ ما ينتظِرُنا جميعاً حتى نغفو ثُمّ ينام هو، كان هذا طبعاً قبل أن تُغادِرنا القافلة، يجهلُ أنّني كُنتُ أرقُبُه عن كُثب دون أن يدري، لعلّهُ فوق خوفِهِ وقلقِه الملحوظ هذا يتّبِعُ تعليمات شيخه يونس <الصّارمة>.

كُلّما ابتعدنا أكثر عن الواحة كُلّما اتّسعت الفجوة بيننا، حالة الاستنفار بينهُم تزداد وتدابيرهُم الاحترازيّة تكثُر حتى شملت مُؤخراً نوبات الحراسة اللّيليّة؛ يخشون غدرنا على الأرجح، ما فائدة مُختار إذن هذا القابع هُناك في مُنتصفِ العتمة يُراقِبُ الظّلام.. مجال الرؤية اليوم شبه مُنعدم بسبب الضباب الكثيف المُنتشر في الأجواء، علام ينظُر إذن هو كُلّ هذا الوقت؟!. حتى الآن لا شيء يبعث على القلق حتى أراه بهذه الجدّية كُلّها، يقضي مُعظم وقتهُ يتطلّعُ بين هُنا وهُناك، يُجيلُ بصره تارةً نحونا يتفقّدُنا وتارةً أخرى نحو الطريق، أولّيه ظهري دائماً حتى لا يراني فيضطرب.

في البداية كُنّا نتقاسم نوبات الحراسةِ بيننا أنا ويونس ومُختار وياسين- المعروف أنّ مُرشِدي الرحلات لا يحرُسونها، هذه قاعدةٌ شائعةٌ في البادية- ثُمّ بعد ذلك رأوا هُم أن يأخذوها وحدهُم ليتقاسمونها فيما بينهُم بمُعدّل ساعتين لكُلّ نوبة. لعلّهُم يظُنّون أنّني أفكّر طوال الوقت فيما يُفكّرون به هُم، في الذّهب مثلاً، لذا يخشون على أنفُسِهِم من التلاعُب أو الغدر.. في أحيانٍ كثيرةٍ أجِدُني ألتمِسُ لهُم الأعذار، رُبّما لأنّه لولا وجود البدو في دِيارِهِم لما كان لأحدِهِم وجودٌ هُنا الآن في هذه الصّحراء.. ولكن، مَن قال أنّني أصلاً أسعى وراء الذهب!

قرارُهُم هذا الذي اتّخذوه ضمن لي على الأقل راحةً جسديّة من السّهر لمزيدٍ من الوقت إن لم يجلب لي راحة البال التي رُحتُ أرجوها، أظُنّهم بعد هذا صار حِقدُهُم عليّ مُضاعف، ولكنهم في النهاية معذورون، يكفيني فقط عناءُ السّفر وعِبء التفكير المُستمِرّ في <مأمون> زعيم الطّوارق.. لو

أنّهم رأوا ما يعتمِلُ في داخلي أو جرّبوه لليلةٍ واحدة على الأقل لقال ثلاثتُهم أنّنا مُتكافئون.

يجب أن نحمي ثقوبنا الصخريّة مهما كلّف الأمر، هذا لحياتِنا أولاً ثُمّ بعد ذلك سوف نجِدُ حلاً لموت الماشية..

كان هذا آخر ما قالَهُ الشّيخ مقصود في المجلِس آنذاك قبل أن يُغادر تاركاً حجراً من اليأس عالقاً في أذهانِنا.. آمالُ كثيرممن حضروا من قبائل البدو تلك اللّيلة أصبحت مُعلّقةً، تتأرجحُ بين دفّتي «قرار»: غاية هُنا تُبرّرُها وسيلة هُناك..

كان أبي يقفُ مُنزوياً في الخارج يُطالِعُ المشهد عن كُثب حتى خرج نحوه الشيخ مقصود فأتاه مُهرولاً، قال لهُ الشيخ مقصود بشيء من الثّبات:

-لا بُدّ أن نُعِدّ العدّة جيّداً يا <صادق> في حال حدث ما نخشاه.. إذا لم نأخُذ حذرنا كفاية سنخفِق كما أخفق من سبقونا.

أجابه أبي باهتمام:

-ماذا ترى يا شيخنا؟!

-يجِبُ أن نحمي ثقوبنا الصّخرية بدرجةٍ أهمّ من أن نحمي أنفُسنا.

-ولكن كيف وهُم يتّبِعون تلك الأساليب الدنيئة من التنكيل بالبشر، حين يربطون الرجال أياماً دون ماء ويتركونهم بعد ذلك ليقودنهُم بأرجُلِهم نحو الآبار.. أترى أن في رجالاتِنا من يستطيعون حقاً تحمُّل شيء من هذا العذاب؟

-ومن قال أنّني أعني ذلك؟

-ماذا تقصِدُ إذن؟!..

قالها أبي فسكت الشيخ مقصود في حين رفع رأسهُ ناظراً إلى الأعلى نحو السّماء، تطلّع فيها للحظاتٍ وقد توسّطتها شمسُ الظّهيرة الحارقة قبل

أن يُجيل بصرَهُ خلال لحظاتٍ مُنزعِجاً جراء وهجٍ ضرب عينيه من شِدّة انعكاس أشعة الشّمس عليها.

قبل أن يستعيد بصرهُ بشكلٍ كامل قال بتعجُّلٍ ظهر في نبرتِهِ وهو يُعالجُ عينيه بيديه:

-كم ثُقباً صخريّاً لدينا هُنا في القرية؟..

أجابهُ أبي على الفور:

-خمسة ثُقوب تُخفي تحتها خمسةُ آبار.

-أهُم على نفس درجة من الأهمية.. أقصد أهل جميعُهُم يُستخدمون بُمعدّلات مُتساوية من أهل القرية؟

-بالطّبع لا، فكُلّ بئرٍ منهم له خصائِصُهُ التي تُفرّدُهُ عن غيره.. وبالطبع ليس كُلّهم يُعطون نفس القدر من الماء.

صمت بُرهةً أخرى قبل أن يقول هذه المرّة بابتسامةٍ (غامضة):

-هل صادفَ من قبل يا <صادق> أن رأيت أحد السّطوح الفُسيفسائية.. أقصِد في الطّبيعة؛ هل رأيتها من قبل كيف تبدو حين تتوسّطُ الشّمس كبد السّماء؟

بدا أنّ أبي لم يستوعِب في البداية ما قاله الشيخ مقصود، في حين أنّه قال فجأةً وقد (بدا) أنّه استعاد شيئاً ما في عقله:

-أتقصد أرصفة الصّحراء؟

-بلى.

-نعم، رأيتُ أحدها من قبل في رحلة لي قبل عامين..

-كيف بدت لكُم؟

-في الحقيقة لم أستطِع تمييزها جيّداًمن وهج الضوء المُنعكِس منها،

بدت لنا في الصَحراء هُناك وكأنها تومِض أوتلمع ببريق معدنيّ غريب.. ولكن ما شأنُ ذلك كلّه بما نحنُ فيه؟!

-بل هذا بالضَبط ما يهُمّ..

قالها ثُمّ شدّه من مِرفقِهِ في حين سارا مُبتعِدين نحو منطِقة سهلٍ مُنبسطة في الخلاء، عندما كانا في مُنتصف المكان توقّف الشيخ مقصود ودار حول نفسِهِ دورة كاملة ثُمّ عِدّة دورات وهو يتطلّع بحماسةٍ في كُلّ الأنحاء.. هذا آثار حفيظة أبي فسأله عمّ يفعلُه، اتّضح لي ذلك من بعيد.. بعد أن انتهى الشيخ مقصود من تلفُّتاتِه الكثيرة حوله استهلّ حديثاً مع أبي. لم أتميزهُ بالطّبع، ولكنّه راح يُحرّك يديه بسرعة بينما كان يشرحُ شيئاً ما بِعُمق وقد دار أكثر من مرّة في موقعه وكأنّه يرسمُ خُطّة ما ويشرحُها في نفس الوقت.. أبي كانت ابتسامتُهُ تتسع شيئاً فشيئاً هُناك وهو يتابِع كلام الشيخ مقصود باهتمام.. في النّهاية استقرّت على وجهه ابتسامة كاملة، رُبّما لم أتميزها لبُعد المسافة ولكنّها على الأرجح (بدت من بعيد) وكأنّها ابتسامةُ رضا أو طمأنينة.

عندما اجتمع الشيخ مقصود بشيوخ القبائل من جديد حتى يُبيّنَ لهُم الخُطّة المُقترحة كان التّعتيم واضحاً جداً. أعيان القبائل الكبيرة فقط هُم من حضروا. قال لمُعاوِنِه حينها بنبرةٍ جادة:

-يا صادق فلتشرح لهُم الخُطّة كاملةً دون أن تتجاهل منها شيئاً.

بدأ أبي حديثهُ قائلاً بعد أن كان قد اتّخذ موقِعهُ سلفاً في مُنتصف المجلس بين الرّجال:

الخُطّة كالآتي: **«طبقة واحدة فقط من الحصى لا تُلفِت انتباه المارّة، ولا يُوجَدُ تحتها سوى الرّمال أوالغبار، تبقى عليها آثار العُبور لفترةٍ طويلة.. يجبُ أن تُرصف الحصى وتنتشر بكثافةٍ ويتم توزيعها بانتِظام حتى يبدو للناظر من بعيد وكأنّها وُزّعت بالتساوي في المكان. المكان يجب أن يظهر مِثاليًا وكأنّه مثل أرضيّة حقيقة فعلاً.**

أكمل.. يجب أن تبدو الحصى أيضاً وكأنها ضُغِطت بمحدلةٍ ثقيلةٍ لتُصبح سطحاً مرناً، والأهم من ذلك كلّه أن توضعَ بحيث تكون مستوية تماماً لينعكِسَ بريق سطحِها بشكلٍ جليّ ومُباشر.

سكت فجأة في حين ارتسمت على مُحيّاهُ ابتسامةُ مُنتصر ظافر - هذه المرّة - وأردف:

لا يُمكن لأيّ شخصٍ أن يتخيّل التأثير الناتج عن انعكاس أشعة الشمس من سهل مُغطّى بتلك الحصى المحدّبة البرّاقة، فكلّ واحدةٍ منها تعكِسُ شعاعاً شمسياً بحدّ ذاتها وينتج عن هذا وهجاً ضوئياً قويا يُصيب الأعين بألمٍ شديد. لن يُخيّل للطّوارق أبداً أنّ تحت هذا الرّصيف من الحصى توجدُ ثقوبٌ صخريّةٌ تُخفي آباراً، رُبّما حتى لن يقربوها حتى لا يُصيبهم من وهجِ ضوئها المُرتدّ العمى، سيعتقدون أنها ظاهرةٌ طبيعيّة تكوّنت بفعل الرياح كما يحدث أحياناً كثيرة في بطن الصّحراء.... هكذا أكمل..

بالطبع يُساعد هذه الظاهرة العمل المتواصل لتحرُّك الرمال فوقها حين تهُبّ عليها رياح؛ لذا من الأفضل أن يبدأ كُلّ مِنكُم عملهُ فوراً حتى يتسنّى للرياح أن تأخُذ وقتاً كافياً لتتزك أثراً عليها ثُمّ بعد ذلك تُترك آثارُ عبورٍ مقصودة فوقها فتبدو وكأنها من فِعل الطّبيعة.. إلخ«

هكذا إذن تكون الخُطّة.. سطوحٌ فسيفسائية من الحصى اللاّمع أو كما يُطلِقون عليها في البادية أرصفة الصّحراء، سوف يُحاكون هذه الظّاهرة الطبيعية ليُخفوا تحتها الثُّقوب الصخرية في حال حدث هجومٌ مُباغت من الطّوارق. رُبّما لن يلحظ أحداً مِنهُم وجودها من الأساس، حتى وإن رآها أحدهم من بعيد لن يطيق تحمُّل النظر نحوها لأكثر من ثوانٍ قبل أن يُجيل بصره فوراً جرّاء الوهج الرهيب الذي يضربُ العين نتيجة انعكاس أشعة الشّمس من فوقها. تكمُن الفكرة أساساً في وهج الضّوء المُرتد من خليط الرمل والحصى اللامعة، تلك الظاهرة تعكِسُ وهجاً ضوئياً بزاويةٍ حادّةٍ يُصيب العين بألمٍ شديدٍ إذا نُظر إليه لفترة معقولة، هذه أفضل

طريقة تُخفي تحتها ثُقباً صخرياً فيظهرُ للعيان وكأنّها أرض حصن تكوّنت بفعل الطبيعة. كانت فكرةً عبقريّةً ابتدعها الشيخ مقصود، ولعلّها تنجحُ.

أكّد الشيخ مقصود في نهاية حديثه على شيوخ القبائل بضرورة أن يتركوا ثُقباً صخرياً واحداً مكشوفاً حتى لا يُثيروا الانتباه إن أخفوا جميع الثُقوب، نصحهُم أيضاً بأن يُكرّروا تلك العمليّة في أماكن مُتفرّقة ومُتباعِدة من الأرض وليس فقط عند مناطق الثقوب الصخرية حتى لا تلفُت الانتباه إليها والأهم من ذلك كلّه أن يُترك أثر عبورٍ فوقها فيظهر للعيان أنها حصى ورمال طبيعية تجمّعت ومرور الزّمن وعبر عليها من قبل بشر أو دواب وبذلك لا يخطُر لعقل بشريّ واحد أن تحت تلك الرمال والحصى تكمُنُ ثقوباً صخرية تختبئ.. نصحهُم كذلك بأن يُكرّروا تلك العمليّة خارج نطاق القُرى إن استطاعوا..

****

يونس

صحونا على صوتِ ارتطامٍ فظيع أفجع قلوبنا، تبعهُ بلحظاتٍ موجاتٌ عاتية وكأنّها ارتدادهُ، لطمت وجوهنا واخترقت آذاننا. لا أعلمُ ماذا حدث؟!

على إثرِها قمتُ مفزوعاً من مكاني ألتفِتُ حولي نحو مصدر الصّوت أتفقّدهُ فإذا بي أرى سحابةً سوداء قاتمة عملاقة تلوحُ في (الأفق)، يا لِهول (عظمة) المنظر!

نظرتُ حولي سريعاً أتفقّدُ الباقين، كان مالك هو الآخر قد انتصب واقفاً بهيئتِه الضّخمة وشاربِه الكث في حين أنّ مُختار وياسين كانا بعد لم يفيقا بشكلٍ كامل، بدا لي أنّ ياسين قد غفا من جديد في نوبةِ حراستِهِ الأخيرة، اعتدنا ذلك منه مُؤخراً. الوحيد الذي لم يكُن موجوداً (حينها) هو إبراهيم - المُرشد -..

أجلتُ بصري من حولي أتفقّدهُ، لمحتهُ هُناك في الخلف يقِفُ بعيداً عنّا ويُدقّقُ في شيء ما في الاتّجاه المُقابل وقد انتابهُ ذُهولٌ غريب، تبيّنتُ

ذلك من ملامحه الجامدة ووجهه (المُتخشِّب). فجأةً سمعتُ صوت مالك يُنادي صارخاً ويقول:

-انظُر هُناك!

التفتُ خلفي مرّةً أخرى ونظرت عمّا يُشير نحوَهُ، كُنت قد نسيتُ لثوانٍ أمر السحابة السوداء القابعة فوق رؤوسنا وقد راح امتِدادُها يحجُبُ الرؤية بشكلٍ تدريجيّ، لأنّ ما شاهدتُهُ بعد ذلك كان أفظع بمراحل، كادت مُقلتاي أن تخرُجا مِن مِحجريهِما من هول ما رأيت.. بدت من بعيد وكأنّها كائنٌ خفيّ يلُفّ ثوباً من الرمال حول شكلِهِ غير المرئيّ، في الحقيقة كانا كائنين، يزأران بِشدّة ويزحفان في سُرعة جنونيةً.. نحونا..

هكذا نطق إبراهيم أخيراً.. قال بابتِسامةٍ غريبة استطعت أن ألمحها بصعوبةٍ وسط الظلام الكثيف الذي راح ينتشِر في الأفق وقد التهم من حولنا بنهمٍ نصف ضوء النّهار:

-عفاريتُ غُبار.. انظروا كيف تأتي أزواجاً؟

ويحك يا إبراهيم! علامَ تبتسِمُ؟!..

قَلتُها في نفسي وقد استفزّتني ابتسامتُهُ البلهاء تلك.. اقتراب ذلك الشيء مئا بشكلٍ رهيب رُبّما هو ما دفعني أن أخرُج عن شعوري فسألتُ نفسي كيف أنّ هذا الجاهل لم يُقدّر بعد المسافة الفاصلة بيينا وبين ذاك الشيء إذ كُنت أنا ألحظُها بدِقّة وقد تقلّصت أمامي إلى حدٍّ مُخيف، رُبّما هيئتُهُ العجيبة ما جعلهُ مشدوهاً إلى هذا الحد أو الهالة العظيمة المُتشكّلة حوله. بجُهدٍ استطعتُ أن أسمعهُ، كان يصِفُ الفرق بينهما، قال شيئاً ما عن أنّ الذّكر يلُفّ عباءة الرمال حولهُ من اليمين إلى اليسار بينما الأنثى العكس.. أحقًا هذا وقت تفلسُفٍ يا إبراهيم؟!

في لحظةٍ ما تبيّن لنا أنّ الظّلام قد نسجَ خيوطه بإحكام فوق رؤوسنا في حين راحت الأصوات من حولنا تذوب ببُطء في زئير ذلك الوحش المُندفِع بقوة نحونا، لحظتها فقط أفاق إبراهيم، صرخ مُحذّراً بصوتٍ

جاهد في جعله مسموعاً:

-إنّها تقترِبُ بشكلٍ مُريب.. اختبئوا خلف الجِمال.. اختبِئوا خلف الجِمال!

الآن أفقتَ أيّها المعتوه؟!.. الآن تصرُخ.

-اختبِئوا خلف الجِمال. اختبِئوا.. اختبِئوا.. راح يُردّد تلك العبارة..

تِكرارُ نِداءِهِ المُلِحّ هذا جعلنا نفترِقُ فجأةً، لا شُعورياً كُلّ منا ركض في اتّجاه، وجميعُنا يبحثُ عن ذات الشيء؛ أحدُ الجملين!

استطعتُ أن ألمح أحدهُما عن كُثب، كان راقداً على مسافةٍ معقولة مِنّي ينفُثُ الغُبار والرمال عن وجهه - هَفف.. هَفف..- بينما لم يكُن للآخر أيّ أثرٍ. دون تفكير قفزتُ نحوه في خطوتين، لمحتُ مالك وياسين هناك كانا قابعينِ خلفهُ، بدا لي أنّهُما للتّو قد سبقاني إليه، هكذا دسستُ نفسي بينهما واختبأنا، بينما راحت زوابع الرمال المُنتشرة في الأجواء جزاء تقدُمِ ذلك الشيء تضرِبُ وجوهنا بِعُنفٍ وقد حجبت الرؤية بشكل شبه كامل.

على الجانب الآخر سمعتُ صوتين يتنازعان، كانا مُختار وإبراهيم، أحدهُما يُنادي الآخر بينما كُلّ مِنهُما يتخبّطُ في الظّلام والغُبار، كأنّهُما يبحثان عن الجمل الآخر بينما لم يكُن له أثر، لا أعرِف أين اختفى!

سمعتُ طشاش صوتٍ يقول:

-أنا لا أرى أحد الجملين، أين هُما؟!.. أظُنّه مُختار من قالها، ميّزت ذلك من غلظةٍ في صوتِهِ (نبرتِهِ):

أجابهُ إبراهيم المُرشد:

-أنا الآخر لا أرى أيّاً مِنهُما..

-.....

فكّرتُ أن أتدخّل.. رُبّما إن قُمت الآن وركضت بأقسى سُرعةٍ نحو مصدر الصّوت لاستطعتُ أن أتعرقلَ بأحدٍ منهما ولجذبته ناحيتي ليختبئ ها هُنا

معنا.. فكرةٌ قفزت فجأةً إلى مُقدّمةِ رأسي وتمحورت في جُزءٍ من اللّحظة، أظنُّها تحتاجُ إلى شجاعةٍ كافية وإلى سُرعةٍ خيالية، حاولت أن أستجمِع قواي وأنا أردّدُ في نفسي عبارةً واحدةً: رُبّما إن قُمت الآن لاستطعتُ أن أمنع شيئاً ما من أن يحدُثَ لأحدِهِما..

رُبّما إن قُمت الآن لاستطعتُ أن أمنع شيئاً ما من أن يحدُثَ..

شعرتُ بعجزٍ غريبٍ يتملّكني فجأةً وبصورةٍ مُخيفة.. أنا لا أملِكُ لهُما الآن شيئاً، قد لا أمتلِك حتى أيّا من هاتين الصّفتين، السُرعة أو حتى الشّجاعة، زئيرُ ذلك الشيء يُعرقِلني، أستطيعُ أن أتميّزه بوضوحِ هُنا من خلف الجمل بينما نختبِئُ ويقترِبُ هو منّا بسُرعةٍ جنونيّة، رُبّما أنا حتى لن أمتلِك عُشر سُرعتِهِ تلك إن حاولت.. ياسين يتشبّثُ بي بينما أتشبّثُ أنا بمالك الذي يجلِسُ ثابتا بلا حِراك، صوتُ فحيحها يُزعِجُني حقاً ويُفزِعُ ياسين.. هكذا فشِلتُ في النّهاية.

مالك!

حينها فقط دوى إلى ذِهني اسمه.. رُبّما هو الوحيد من بيننا الذي يمتلِكُ هاتين الخاصّتين أو على الأقل أحدهما وهو الوحيد الذي فُرصةُ نجاتِهِ ستبقى معقولة إن غامر وفعلها.. هكذا كُنت على وشك أن أنطِق باسمه حتى توقّفتْ فجأةً، تنبّهتُ وقتها أنّ صوتهُما قد انقطع مُنذُ ثوانٍ، هذا أقلقني حقاً من أن أتّخِذ القرار، مُجازفتي بمالك الآن في هذا التوقيت الحرِج قد تُعدُّ ضرباً من الجنون ورُبّما تزيد الطّين بلّة إن ذهب ولم يعُد بأيٍّ منهُما، رُبّما حينها لن يعود هو الآخر بِذاتِهِ.. صوتُهُما قد خمُد فجأةً ولم يعدُ له أثر.. لا أعلم حقاً أين اختفوا!

فجأةً سمعتُ من جديد دويّ صوتٍ يُنادي، قال هذه المرّة بصوتٍ مُتقطّع:

-وجدتُ أحدهُما ها هُنا، هو هائج يرفُضُ الجلوس.. أنا أحاوِوِل!

-اركُض نحوي شمالاً ورُبّما تجِدُنا..

-أنا أحاووو ول..

-.....

-.....؟!

قالها وانقطع الصّوتُ من جديد..

تكرار نِداء إبراهيم لنا أن نختبئ.. قفزتي نحو الجمل.. طشاش صوت إبراهيم ومُختار.. فكرة التدخّل.. فُرصُ النّجاة.. أنا.. مالك..

كُلّ هذا حدث في ثوانٍ معدودة، ولكنّ الوقتُ حينها كان قد أزح وفُرصُ النّجاة قد تلاشت واضمحلّت.. رُبّما لو أخبرتُ مالك قبلها بلحظاتٍ؟!

تلك فكرة تملّكت عقلي لثوانٍ قبل أن تُغادره، ظلّت في النّهاية مُجرّد فكرة عشوائية عاجزة اختفت كما ظهرت.. لا أعلم حقاً ماذا يدور خلفنا الآن، ولكنّني لم أسمع صوتَ مُختار ولم أسمع صوتاً بعدها.. أسمعُها فقط تقتربُ أكثر، رُبّما يفصِلُنا عنها الآن بِضعةُ أمتارٍ فقط، ستجُزّ معها كُلّ شيء يعترِضُ طريقها، حتّى نحن، رُبّما إن كان القدر لطيفاً (بنا) حقّاً سيعيشُ منّا واحد أو رُبّما اثنان على الأكثر، سيعيشان بأثرٍ منها في نفسيهِما وربما بعاهةٍ، سيهيمان ما تبقى مِن عُمرِهِما ها هُنا في الصّحراء، تائهين..
وحيدين وقد فقدا كُلّ شيء.. بالتّأكيد سيموتان في النّهاية، بعد أن ينفد طعامُهُما..

أسمعُ صوتها تقتربُ.. يبدو أنّها ستعبُرُنا الآن..

****

يونس

القاعدة الثالثة: في الصحراء الوقت لا يعني شيئا، لذا لا تسأل عنه..

هكذا أفقتُ فجأةً جرّاء وهجٍ حادٍ من ضوء الشّمس ضرب عيني، أشعتُها المُباشرة تلك آذتني (اخترقت عيني) فأغلقتُ عيناي عنها كردّةِ فعلٍ سريعة. خلال لحظاتٍ شعرتُ أنّ شُعاع الشّمس قد انزوى (تلاشى) أورُبّما

خفُت بريقُهُ، ففتحتُ جفناي من جديد حين لم أتميّز قُرص الشَمس ولا شيء آخر، لا أدري أين اختفت هكذا فجأة؟!

ثُقلٌ غريب يسري في جفوني وصورة ضبابيّة تنقشِعُ تدريجيّاً من أمام ناظري. فجأة ظهر شُعاعُ الشَمس مرّة أخرى فضرب بقوة هذه المرّة، أغلقتُهُما من جديد، يبدو أنّه يختفي للحظاتٍ خلف حاجزٍ ما ثُمّ يُعاود الظهور. بعد لحظاتٍ أعدتُ فتحهما لأجد أن تلك الصّورة الضّبابيّة قد تشكّلت كاملة مرّةً أخرى.. هكذا ظلّت لثوانٍ أحاول فتحهما حتى نجحتُ أخيراً.. لمحت أجساماً قاتمة تعبُرُ من فوقي، تميّزتُها بصعوبةٍ بالغة، كانت صغيرة نسبياً وتسير مُتفرّقة، بدت لي كأنّها قطع من سحابات سوداء قاتمة مُتقطّعة (تسير) خلف واحدة أكبر تعبُرُ من فوقي، أو أنّها الأرض (كانت) تدور من حولي.. المُهِمّ أنّني وجدت نفسي مُمدّداً على الرمال بينما لا أتذكّرُ تحديداً ما الذي حدث أو ما الذي ألقى بي هُنا.. آخر شيء أتذكّرُهُ حقّاً أنّي ومالك وياسين كُنّا نختبِئُ هنا خلف الجمل من تلك العاصفة التي انشقّت عنها الأرض فجأةً.. أين الجمل إذن؟!

أسمعُ صوتاً يتردّدُ في أذُني يُزعِجُني، أتميّزُ مقاطِع منه تخرُجُ مُتقطّعة كصدى صوتٍ أو أنّها أذُني تتخلّص من ضغطٍ هائل تجمّع فيها.. أسمعُهُ هذه المرة يُنادي بإلحاح، إلحاحُهُ يزداد في كُلّ مرّةٍ.. هذا دفعني إلى أن ألتفّ بجسدي كاملاً نحو مصدر الصّوت أتفقّدُهُ.. تراءى لي من بعيد شخصان يتحرّكان، لمحتُ بجُهدٍ هيئتهُما المُهتزّة من خلف غشاء عيني الذي راح يتلاشى تدريجياً، كانا مُندفعين يركُضان بعشوائيّة، يركُضُ كُلّ مِنهُما في اتّجاهات مُختلفة كأنّهُما يُفتّشان عن شيء ما، ثبّتُ عيني عند قدم أحدِهِم أتتبّعُهُ، كُنت مُجهداً لأرفع رأسي وأراه كاملاً، لمحتُهُ هُناك من مسافة بعيدة يقتربُ من شخصٍ آخر، كان هذا الأخير مُمدّدا على الرمال مثلي، رأيتُهُ هُناك وأنا أجيل بصري عند قدمه..

هكذا انتفضت فجأةً، وشعرتُ بشيء يُشبِهُ بالقشعريرة سرى في جسدي، رأيتُهُ من بعيد.. كان مُمدّداً على الرمال مثلي.. رُبّما (يكونُ) هو؛ يُشبِهُهُ حقاً، مُمدّداً على الرمال وسط بركةٍ من سائلٍ لزِج تميّزتُها من انعكاس

أشعة الشمس عليها، كأنّها دماء.. قلبي كاد أن يتوقّف!

هكذا حاولت استجماع قواي ونهضت من مكاني (بتعجُل)، استندتُ إلى طرف صخرةٍ كانت بجانبي لأقِف، شعرتُ حينها أنّ الأرض تدور من حولي، ثمّ ما لبث أن تحرّكتُ أمشي نحوه بترنّح.. أسير بينما تلك الغشاوة على عيني تنقشِعُ بِبُطء كئيب ومِملّ يقتُلني، أفرُكُ عيناي مُحاولاً التّلخص منها نهائياً، أريد أن أتميزهُ بوضوحٍ أكبر، أكاد أجنّ من فرط تلاعب الصورة في وجهي، أراه شيئاً واحداً مُسطّحا مُلقىً على الرمال بلا ملامح وبألوان مُتداخلة، كلّما أقترِبُ منه ملامحه تميع وتهتز مثل صورةٍ على سطح الماء يعكّرُ صفوها يد طفلٍ صغيرة.. أفرُكُ عيني من جديد وأقترِب فأرى جسده وقد راحت بعضُ ملامحه (تتماسك) أمامي بينما أنفاسي تتلاحق، أسمعُ صوتها وصوتاً آخر يُنادي عن كثب، لا أتميز ما يقول.. رُبّما يُنادي على شخصٍ ما، من هذا الذي يُنادى عليه؟! تركيزي كلّه مُنصبّ نحو الشخص الراقد على الرمال أمامي، أقترب أكثر فأرى وجهه وقد راح يتّضِحُ شيئاً فشيئاً بينما تسرّب جُزءٌ كبير من جسده من خلف غشاء عيني، ثمّ فجأةً سقطتُ..

يبدو أن شخصاً ما اصطدم بي من الخلف فوقعتُ على الأرض، ولكنّني سمعتُ صوتهُ بوضوحِ هذه المرّة، كان يصرُخ مناديًا:

-مُختار مات.. يا للمُصيبة!

لم أصدّق ما أسمعهُ، التفت نحوه بحنقٍ شديد وأنا أكتمُ غيظي، كان هو ياسين يلطُم وينوح بينما يتحرّكُ في مكانه ويُكرّر جُملةً وحيدة (نفس الجُملة):

-مات مُختار.. مات أخي..

ماذا يقول هذا الأحمق.. مُختار مات؟!

هذا ما ردّدتُهُ في نفسي وأنا أزحف على ركبتي ويداي لأواصل التقدم نحو الشخص الراقد على الرمال أمامي.. أريد أن أتميّزهُ، أصبحَ الآن على

بعد خُطواتٍ.. أقترِبُ منه أكثر فأرى ملامحهُ وقد راحت جميعُها تتكشّف، أتقدّمُ خطوةً أخرى لأراه هذه المرّة بهيئتِهِ الكاملة..

الآن فقط أفهم ما يحدث!!

عندما اقتربتُ من ذلك الشّخص الراقد على الرمال وتطلّعتُ في وجهه عن كُثب عرفتُهُ، كان هو مُختار، راقداً وعلى وجهه طبقةٌ من التُراب ومن مُنتصف رقبته ثمّة ثُقب يشكّل حوله دائرةً من دم ومن نُقطة أخرى على صدره تنبعُ خيوطٌ أخرى رفيعة تنساب على جسده كُلّه حتى أنّها تصنعُ في النّهاية عند طَرَفِهِ بركة في حجم دائرة، بركة من دماء مُتخثّرة يُحيط بها مساحة من جلد اكتسب صُفرة الموت، تصُبّ جميعها في النّهاية في بركةٍ أخرى أكبر حجماً تحته، وجهُهُ كان أصفر بحق، بدا لي وكأنّهُ قد فقد دمهُ كُلّهُ في تلك البركة.. يا إلهي.. ما الذي حدث؟!

همهمات ولغط وارتباك في العيون، ياسين يصرُخ وينوح بصوتٍ جهوري من حولي ومازال يُردّدُ عبارتهُ تلك بينما مالك يجلِسُ ساكناً بجوار جُثّة مُختار الغارق في دمائه ويرفع رأسهُ على قدميه، إبراهيم المُرشد هو الوحيد الذي كان قابعاً على صخرةٍ يجلِسُ القرفصاء وعلى وجهه علامات ذهولٍ وخوف شديدين (غريبين).

اقتربتُ من مُختار، لمستُ وجهه بكفّي وأنا أرتعش، كان بارداً جداً لدرجة الألم، كأنّما أمسكتُ قطعةً من الثلج بين يديّ، أغلقتُ عينيه المفتوحتين وجسدي كُلّه يختلج وقد تيقّنتُ تماماً أنّه مات من دون حتى أن أتفحّصهُ، علمتُ ذلك من حجم بركة الدّماء المُنتشرة حولنا في المكان وثُمّ من عينيه المفتوحتين على أقصاهما. هذه دلائل موت مُؤكّدة، ولكن ما الذّي حدث، هذا ما أجهلهُ، التفت نحو مالك ونظرتُ في عينيه، كانت نظراتُهُ خاوية، بدا لي أنّه خائف كأنّي لمحتُهُ يرتعد هو الآخر.

في تلك الأثناء اقترب منّي ياسين، قال مُنهاراً وقد سالت على وُجنتيه دموع حارقة:

-من الذّي فعل ذلك بمُختار، كيف قُتِل بتلك البشاعة.. متى حدث ذلك

أصلاً بينما لم نفترق نحن غير دقائق معدودة اختبأنا فيها من تلك العاصفة!

ثُمَ خرّ ساقطاً هو الآخر بجانبي ينتحب..

لا أعرف حقاً بم أجيبه، يسألني ياسين وأنا لا أعلمُ شيئاً، حتى اللحظة أنا غير مُصدِّقٌ لما أراه، ثمّة لهيبٌ يتّقِدُ في داخلي ويزداد اشتعالاً كُل لحظةٍ، لا أجد حتى ما أقوله لنفسي لأخفّف عنها الألم ووجع الصَدمة، في داخلي قهر لو اجتمع الآن لأحرق العالم كُلّهُ، كيف لولدي أن يموت هكذا أمام عيني بينما أنا لا أملِكُ له شيئاً، أيُّ لحظاتٍ عصيبة تلك ستمُرّ علينا ها هُنا في الصَحراء، اثنتا عشرة ليلة قضيناها ها هُنا في الصَحراء وحدنا هائمين، أيُّ لعنةٍ تلك التي حلّت علينا.

القرار بالعودة الآن بات مُستحيلاً بينما أصبح التّقدم أيضاً ضرباً من الجنون، كيف سأطلُبُ منهم أن نتقدّم في هذه الظّروف، وإن اخترنا التّراجع والعودة إلى الواحة كيف سأفسّر ذلك للشيخ إدريس، ماذا سأقول له إن سألني عن سبب غيابي فجأةً، كيف سأفسّر له رحيلي أصلاً من البداية، ماذا سأقول لهُم إذن؟!.. كيف سأطلُبُ من ياسين أن يهدأ أو يتماسك بعد الآن بينما أنا أجلس بجانبه هُنا وفي داخلي كُلّ شيء يشتعل، أظُنُّها بداية النّهاية لنا، لا أدري ما أقوله لك حقّاً.. سامحني يا ولدي، فأنا الآن أصبحت عاجزاً حتى عن مواساتك، الصَدمة والفجيعة أكبر من أن ينطِق بها لساني أو يستوعِبُها عقلي فأنا مثلك بشر، سامحني لا أجدُ ما أقولهُ لك سوى أن مُختار أخيك قد رحل بلا عودة.. قُلتُها في نفسي من دون حتى أن أتطلّع في وجهِهِ..

تذكّرتُ حينها أمر العاصفة، تذكّرتُ أيضاً آخر شخصٍ سمعتهُ يُحدّث مُختار، كان إبراهيم المُرشد، سمعتُهُ يُناديه حينها قبل أن تضربنا العاصفة بلحظاتٍ، أتذكّر أنّي سمعتهُ يقول:

-وجدتُ أحدهُما ها هُنا، هو هائج يرفُضُ الجلوس.. أنا أحاوِ وِوِل..

-اركُض نحوي شمالاً وربّما تجِدُنا..

-أنا أحاووو ول..

ثُمّ انقطع صوتُهُما فجأةً..

لذا قُمت من مكاني وأنا أربث على كتِفِ ياسين مُحاولاً تهدِئتهُ وتوجّهتُ نحو إبراهيم الذي كان جالساً في مكانه لم يبرحه، سألته:

-ما الذي حدث يا إبراهيم؟ كيف مات مُختـ..

لم أستطِع أن أكملها فسكت. نظر لي نظرة فارغة ولمحت دمعةً فرّت من قاع عينيه لتتشكّل على مُقلتيه، في حين قال بنبرةٍ مُتهدّجة:

-أنا لا أدري، رُبّما تكون العاصفة قد ضربتهُ فمات.

ثُمّ أشاح بوجهه عنّي وسكت.. حاولتُ أن أتمالك أعصابي وسألتهُ هذه المرّة:

-أتقتُلُه العاصفة بهذه البساطة؟!

قُلتُها وأردفت في حين راحت نبرةُ صوتي تتعالى تدريجيّاً:

-كيف؟!

-ألم تلحظ ثُقب الدّماء الغائر في رقبتِهِ؟!

-قُل لي كيف؟!

تطلّع في وجهي باستنكار وقلق، رأى في نبرتي اتّهاماً له فأجاب على الفور:

-قُلت لك أنا لا دخل لي فيما حدث له..

حينها فقط تدخّل مالك، سمعتهُ من خلفي يقول وهو يتقدّم نحونا:

-يا شيخ يونس، لا ذنب لإبراهيم فيما حدث لمُختار..

قاطعتهُ وأنا ألتفتُ نحوهُ، هذه المرّة لم أستطع تمالك نفسي، قُلت مُنفعلاً وأنا على وشك أن أنفجِر في وجههِ:

-وما أدراك أنت.. وكيف تُفسّر ما حدث، لا بُدّ أنّه يعرِفُ شيئاً ما أو أنّه شاهد شيئاً ما على الأقل؟!..

قاطعني:

-وماذا سيستفيد إبراهيم من مقتل مُختار، هذا الإعصار هاجمنا بغتة وكُلّنا كُنا نحاول الاختباء..

حينها فقط هبّ إبراهيم واقفاً، قال وجسدهُ كُلّه يختلج:

-رُبّما اصطدم حجرٌ ما برأسه جرّاء هذا الإعصار فمات، أو رُبّما داس الجمل على رقبته وهو هائج فقتله في الهوجة..

-أين هو الجمل، أنا لا أراه؟!

-أنا لم أختبئ خلف الجمل، لم أستطع السيطرة عليه، كان هائجاً بسبب الإعصار فأفلت منّي ولا أدري أين اختفى.. ما أعرِفهُ حقاً أنّه عندما كانت عفاريت الغُبار على وشك أن تضربنا ألقيت بنفسي على الأرض وأخفيت وجهي خلف هذه الصّخرة التي أجلس فوقها، ولم أرى بعدها شيئاً..

سكت بُرهةً كأنّما يُعيد صياغة شيء ما يدور في رأسِهِ قبل أن يقول:

-ولماذا تتّهمني أنا بالذّات، لماذا أنا الذي تشُكّ به يا شيخ يونس، لماذا لا تثق بنا أصلا، ألِأنّنا بدواً هذا يستنفِزُك؟!

كدت ألطمه بكفّ يدي لولا أنّ مالك أمسكني في اللّحظة الأخيرة.. قُلت له وأنا أجيل بصري وأبتعد عنه بعيداً:

-لأنّه ولدي.. وقد مات!

قُلتها ورحلت عنهُما..

مرّت ساعة ونحن جلوس هكذا لا نفعل شيئاً، كُلّ مِنّا مُختل حول نفسه

غيرُ مُصدّق بعد لما حدث، مالك يجلس بقُرب مُختار الغارق في دمائه وإبراهيم مازال قابعاً هُناك في مكانه على ذات الصّخرة لم يتحرّك واختليتُ أنا بنفسي بعيداً بينما ياسين هو الوحيد الذي بدأ يهذي وهو يصيح، أظُنّه على وشك أن يُجنّ، لم يُصدّق بعد ما حدث لمُختار، بالتأكيد فَراق مُختار سيؤثر عليه، سيفتِقِدُهُ بشدّة، في الحقيقة كُلّنا سنفتقِدُهُ ولكنّنا إن سلّمنا أنفُسنا للوهن هكذا سنهلك في النّهاية، هذا ما لا يُدرِكونهُ حقاً وبالتأكيد ما لا يُدرِكُهُ ياسين أيضاً. لا بُدّ في النّهاية أن نتّخذ قراراً إمّا بالاستمرار أو بالعودة.

هكذا قُمت من مكاني وتوجّهتُ نحوهُم بينما الألم ينخُرُ في عظامي بلا هوادة، فكرة الفُراق في حدّ ذاتِها تقتُلُني، رُبّما لا أشعُر بها الآن كفايةً ولكنّ تأثيرها سيظهرُ وقتاً ما وسيترُك أثرهُ في نفسي، كأنّ السكينة تسرِقُني الآن..

وقفت بينهم أناديهم أن يجتمِعوا حولي، لا بُدّ أن نُناقش الموقِف الآن ونُحدّد ما إذا كُنّا سنعود أو نُكمِل، الوقت ليس في صالِحِنا على كُلّ حال. ناديتُهُم جميعاً ووقفت بينهم، انتظرتُ حتّى اجتمعوا حولي في حلقةٍ وقلت:

-الوقت ليس في صالِحِنا، إن بقينا هكذا سنهلك لا محالة.. لا بُدّ أن نتّخِذ قرارنا الآن إمّا بالبقاء أو العودة.. أريد أن أسمع منكم؟!

رفع ياسين رأسهُ مُندهِشاً بينما الدّموع تملأ مُقلتيه وقال باستنكار شديد:

-ماذا تقصِد بالبقاء.. أتقصِدُ أنّنا سنُكمِل رحلتنا هذه بعد الذي حدث لمُختار؟!

لم أجِبه حين تطلّعت في وجه مالك وإبراهيم أحاول أن أستشِفّ منها شيئاً.. ياسين هو آخر ما يشغل بالي الآن، ما يهُمّني حقّاً هو رأي مالك ثُمّ إبراهيم.. مالك لم يتكلّم في حين أنّ إبراهيم اختار الصّمت هو الآخر ولكنّه كان يُقلّب نظراته مع مالك بين الحين والآخر، نظراتٌ تُقلِقُني، لا

أدري حقاً ما يدور في ذهنيهما الآن.. حينها فقط أردف ياسين قائلاً بلهجةٍ أكثر جِدّة:

-كيف لكم أن تُناقِشوا هذا أصلاً بينما دماء مُختار لم تجِف بعد؟!..

-هل سنترُكه بكُلّ بساطة وحيداً ها هُنا في الصحراء ونرحل؟!

اقترب مني، أمسك وجهي بكلتا يديه في حين رفع رأسي، نظر في عيناي مُباشرةً وقال وقد راحت دموعه تسيل بغزارةٍ على وجنتيه:

-هل ستترُك ولدك وحيداً هُنا وتُغادر من أجل الذهب.. لو كُنت أنا مكانه هل كُنت ستترُكني وحيداً وترحل؟!.

كلامُهُ هذا يقتُلني، يُشعِرُني باللّوم تجاه نفسي، هو لا يعرِف شيئاً عمّا يدور في داخلي الآن، علام يتّهِمني إذن؟!.. رُبما لو عرف ما قال ذلك من الأساس، ما تدفعهُ الآن هي غريزة الأخوّة في داخله ولكنه لو أدرك معنى أن تكون أباً لمرّةٍ وحيدة رُبما لأشفق عليّ، ياسين لا يعي أنّ مُختار كان بمثابة الابن الحقيقي بالنسبة لي، ولدي الذي لم أنجِبه، ربّيتهُ مُذ أن كان صغيراً حتى أصبح رجُلاً مِلأ عباتِهِ، أبناؤنا ليسوا هُم من نُنجِبهُم بقدر ما هم من يعبرون خلالنا، خلال حياتِنا، لو يُدرِكُ هو ذلك فقط؟!.. لا يُعقل أن أتركه بتلك البساطة وأغادر ولكنّها الظروف تُحتّم علي أن أتدخّل في موقِف كهذا وإلا سنهلك هُنا جميعاً وهو أوّلنا، لو كُنّا في موقِف غير الموقف أيُعقل أن أفعل ذلك؟!

قُلت له مُحاولاً تهدِئتهُ بقدر ما أستطيع:

-أنا لا أعني ذلك، ما أعنيه فقط هو أنّ علينا أن نتّفق على حل واحد، لو اخترتُم العودة الآن فأنا أوّلكُم.

هُنا فقط تدخّل مالك فقال:

-الأمر الآن أصبح لا يتعلقُ بشخصٍ بعينه، القرار أصبح أكبر من أن نحصُرهُ في هذه الزاوية الضيقة من النّقاش، هل خطر إلى ذِهنِ أحدِكُم

يوماً أنه لو عُدنا الآن إلى الواحة ماذا سيكون الموقف.. هل ترون أنه بإمكاننا الآن بكل بساطة أن نرجع من دون أن نتعرّض إلى المُساءلة. بالتأكيد مأمور الواحة قد وصلهُ مُنذ وقت طويل أمر اختفائنا وقد يكون بحث خلفنا هو وأعوانهُ حتى يكتشف أمرنا.

-حتى لو قرّرنا العودة الآن ماذا سنقول لهُم إن سألونا أين كُنّا.. إن سألونا عن مُختار ماذا سنُجيبهم؛ أنه قد مات بكل بساطةٍ هنا في الصحراء بينما كُنّا نسعى وراء الذهب، هل سيُصدّقوننا إذن؟!

-مُختار الآن قد مات وبعد موته تغيّرت الظروف.. لا بُدّ أن نُعالج الأمر بالحكمة لا بعواطِفنا!

لأول مرّة أعتقِدُ أنّ مالك يقول الصّواب، كلامهُ هذا لم يخطُر على بالي من قبل ولا أعتقد أنّه كان سيخطر على باله قبل الآن، ولكنّ ما يقولهُ الآن هو عين العقل، حتى ياسين الذي لم يجِد ردّاً على ما قالهُ مالك أظنه تفهّم ما يعنيه. حقّاً ماذا سنقول لهُم إن عُدنا الآن، أنّنا كُنّا نسعى وراء الذهب ومات منّا واحدٌ جرّاء عاصفةٍ ضربتنا في الطريق، هل هذه ذريعة كافية لأن يُصدّقونا؟ رُبّما يشُكّ مأمور الواحة في أمرنا من البداية وقد يعتقد أنّنا سافرنا لأجل شيء آخر، أن نُدبّرُ أمراً ضِدّه مثلاً، حينها لن يرحمنا وسيُرسِل إلى قادتِهِ في العاصمة فيمُدّونه بجيشٍ من الإنجليز كما فعلوا سابقاً، حينها ستكون الكارثة على أهل الواحة جميعُهُم، رُبّما بهذا نجلِب لهُم خراباً أكبر مما هُم فيه، أينقُصُهم المصائب. حتى وإن عُدنا الآن بعد كُلّ هذا وحقّقوا معنا سيعرفون في النّهاية مكان الذّهب، رُبّما يُرسل المأمور حينها حملةً ليُفتّش عنه هُناك في وادي الموت، وإن وجده سنكون حينها قد خسرنا كُلّ شيء؛ مُختار أولاً ثُمّ الذّهب، لذا ما يقولهُ مالك الآن هو الصّواب، لن أسمح لأحدٍ مهما كان أن يجعلنا نتراجع، رُبّما خسِرنا مُختار ولكنّني لن أسمحَ لأحدٍ بأن يجعلنا نخسرُ الذّهب كذلك.

هكذا غسّلنا مُختار ثُمّ صلّينا عليه، طلبتُ منهُم بعد ذلك أن يدفنوه هُنا ويضعوا فوق قبره علامة حتى إذا ما مررنا من عنده يوماً نعرِفهُ، اعترض

ياسين في البداية، رأى أن نأخذه معنا وندفنهُ في الواحة عندما نعود، قال:

-كيف سنتركُه هُنا غريباً في هذه الصحراء القاحلة؟!

من قال أننا سنعود إلى الواحة أصلاً؟ أخبرني ماذا أقصِد بذلك.

قُلت له ببساطةٍ أننا إن تحصّلنا على الذهب كيف سنعود إليها، إذا كُنّا ها هنا الآن وفي هذه الظُروف ونعجز عن إيجاد مُبرّرٍ لعودتنا فكيف بعد أن نتحصل على الذّهب وتكون شهوراً حينها قد مرّت؟!.. قال لي أننا لا نعلمُ ما يحدثُ بعد شهورٍ، قال أنه رُبما تتغيَر الأوضاع هُناك في الواحة ورُبما يتغيَّرُ المأمور نفسه، أخبرتُهُ في النّهاية أنه مهما كان ما سيحدث فمُختار لا يستحِقُّ أن يُدفن في الواحة، هي ليست وطنهُ، عاش فيها غريباً طَوال حياتِهِ وها هو ذا قد مات غريباً عنها أيضاً، رُبما لو وِلد في مكانٍ آخر غير الواحة لاستحقَّ أن يُدفن فيه، أخبرتُهُ أننا أيضاً لا نستحقُّ أن نُدفنَ في هذه الواحة.

عندما دفنوه لم أشارِكهُم ذلك، لم أكُن لأحتمل تلك اللّحظات الموجِعة، ياسين كذلك لم يفعل، وقفنا نحنُ الاثنان نُتابعُ من بعيد مالك وإبراهيم وهُما يفعلانِها، بينما تومِضُ في رأسي جملة أخيرة قالها مُختار قبل أن نرتحل:

-معك يا شيخ يونس. منْ لي سِواك في هذه الدنيا.

أين أخبّئ هذا الوجه المُحتقِن بالدّموع، حتى الآن لا أعرفُ كيف لم أبكِ عليه، لم أذرِف دمعةً واحدةً برغم أني في داخلي أنكوي، رُبما لأنّي أرى أنّ أناساً مثل مُختار لا يستحِقّون أن نختصِر حُزننا عليهم في دموع أو نحيب، هم يستحِقون أكثر من ذلك بكثير، لو كانت الحُرقة في داخلنا على من نُحبّ تُقاس بالدّموع لكان الأمر أهونْ بكثير ولذرفنا عليهم أنهاراً من دموع حتى نشفى، ولكنّ الألم لا يُقاس بالدّموع بقدر ما يُقاس بـالحنين، هذا رُبما ما يجهلهُ ياسين لذلك يتّهِمُني بالقسوة، لا أدري حقاً من فينا الأصحّ ولكنّ لحظات التّمنّع هذه تخنقُني، قلبي يكادُ أن ينفطِر لوعةً، لو

أنّني أستطيع أن أبكيه الآن ولو للحظاتٍ أريح بها قلبي وألفظُ فيها ما يعتمِلُ في داخلي من لهيب..

طلبتُ من إبراهيم أن يُحصي لنا الخسائر بعد العاصفة، أخبرني أنّنا خسرنا جملاً واحداً بما حمل، لا أدري أين اختفى هذا الجملُ حقاً، فجأةً صحونا ولم يكُن له أثر، بحثنا عنهُ في كُلّ مكان ولم نجده، هكذا اختفى فجأةً وأخذ معهُ نِصفَ المؤن، رُبّما هرب خوفاً من العاصفة أو أنّها حملتهُ معها و(قذفتهُ بعيداً) في طريقها، لا أدري ولكنّنا وجدنا بقايا ممّا كان يحمِلِه مُلقاةً على مسافة قريبة منا، هذا ما جعلني أشُك. المُصيبة أنّه أخذ معه طعاماً وماءًا يكفينا لشهور، حقاً أنّ هذه مُصيبة أخرى، كيف سنمضي ما تبقى لنا من أيام في الطّريق بنصف المُؤن فقط، صحيح أنّنا أصبحنا أقلّ عدداً بعد فُقدان مُختار ولكن هذا ليس بالفرق الكبير، سيجعلُنا هذا حريصين جداً على كُلّ قطرةِ ماءٍ أو قطعةِ خُبزٍ مازلنا نملكُها. حدث كثيراً بعدها أن لامني مالك على كمّية الماء الكبيرة التي قال أنّي أهدرتُها في تغسيل مُختار، قال أنّ هذه الكمّية كانت كافية لأن تسقينا سبعة أيّام كاملة نشربُ منها ما نشربُ ونغتسل، طلبتُ منه بعد ذلك أن يتدبّر هو أمر المُؤن.

راح الوقت يتباطأ أكثر لي وهدد حتى بالعودة إلى الوراء، كُنّا آنذاك نغوص في صحراء مثالية ثُمّ انتقلنا بعد ذلك من أرض الأشجار الذابلة إلى مسطحات رملية قاحلة تخدُّها في البداية تلال بعيدة بعض الشيء عن بعضها البعض، في الحقيقة إذا لم يكن لديك مقصد محدد مثل ثقب مائي؛ يُصبح الوقت في الصحراء غير ذي مغزى بنحو كبير، وإحساس غريب وصعب على ذهن الدخيل أن يتعامل معه، هكذا قال إبراهيم وأظُنّه كان صائباً. لكن التضاريس تغيرت بسرعة وتتالت التلال الرملية خلف بعضها البعض مثل موجات البحر، لم نكد ننتهي من نزول إحداها حتى نصعد أخرى، والحرارة الزائدة في هذا المكان المنعزل أرهقتنا كثيراً.

هكذا مرّت أيام قضينا مُعظمها سائرين بلا توقّف، توقّفنا مرّة أو مرّتين على الأكثر، الصّحراء من حولِنا قاحلة لا تُنذِرُ بأي شيء والمسافات تتّسِعُ

بينما الألم صار في داخلي لا يُحتمل، يبدو أنني أصبحتُ هشًا بما فيه الكفاية لأنكسر في أيّ لحظة. لا أعلمُ حقاً ماذا أصابني، أهُو موت مُختار من أوصلني إلى هذه الدرجة من الهشاشة والضَعف؛أو أنّها روحي المِخمليّة أحاطت نفسها بالأشواك لفترة لأنّها ببساطة لن تتحمّل الصَدام التالي قبل أن تنفك فجأة بعد موت مُختار. في كُلّ مرّة اعتقدت أنّ جسدي يفيق محاولاً اختراق حاجز الوَهَن الذي (يُـ) غلّفني اصطدمتُ بحائط أقسى وأصلب يصعُب اختراقهُ، حائط الخيبات، يزداد في كُلّ مرّة ويتّسع ليحتلّ (حيزاً جديداً) ومساحاتٍ إضافيّة، بل إنّه الآن لم يكفِهِ ما أخذ وصار يقتربُ أكثر حتى أصبح على مسافة كافية من أنْ يمتزج بحائط الوهن، سيشكّلا معاً ساتراً مُسلّحاً يستحيل اختراقهُ..

****

مالك

أكان ينقُصُنا موت مُختار؟!

أكان ينقُصُنا المصائب، هذه الحادثة بالتأكيد ستزيد الاحتقان بيننا، ستفتحُ أبواباً كثيرة موصدة، فقْدُ واحدٍ مِنهُم ليس بالأمر الهيّن على كلانا، ياسين بدا حزيناً جدّاً لموت مُختار، ظلّ حانقاً من الشيخ يونس لأيام لا يُكلّمهُ بعد أن ترك مُختار وحيداً في الصحراء، وراح يهذي باسمه. هذا الضَعف في داخِلِهم يُقويّنا نحن، قال في وجهِهِ مُعترضاً كذا مرّةٍ أنّه إن كان هو مكان مُختار هل كان سيترُكهُ بهذه البساطة ويرحل، أظُنّهُ حكّم عواطِفهُ أكثر في هذا الموقف بيد أنّ الشيخ يونس كان عاقلاً جداً في مُعالجتِهِ للأمر، لم أتوقّع منه ذلك حين داس على أوجاعِهِ كُلّها واختار أن يُكمِل الرحلة برغم موت مُختار الصَادم، مُحصّلةُ أوجاعِهِ تزداد يوماً بعد يوم، أستشعِرُها، ولكن حتى اللّحظة لم أرهُ يذرُف دمعةً واحدة عليه، لا أعلمُ حقّاً ماذا ينتظر ولكنّي على يقينٍ من أنّهُ يعي تمامً ما يفعلهُ، برغم ذلك أعلمُ أنّهُ في داخله ينصِهُر، لو أبدى ذرّة ضعفٍ واحدة أمامنا لاستغلّيناها ضِدّهُ، هذا بالتأكيد ما يُفكّرُ به، يُريد أن يظل هو المُتحكّم في

زمام الأمور حتى بعد موت مُختار وبعد أن تعادلت كفَّتنا، أظنّ قلقه يزداد الآن بمُعدّلٍ غير مسبوق، هو يعلمُ يقيناً أنّه لو أردنا أن نغدُر بهما الآن أنا وإبراهيم لفعلنا، كلاهُما على يقينٍ من ذلك، مُختار بالنسبةِ لنا كان شوكة في الحلق وزالت، بعد أن مات لم يُصبح أمامنا سوى كهل وشاب آخر يافع على مشارف الجُنون، أراه يهذي باسم مُختار كثيراً، في بعض الأيام حين نخلُدُ للرّاحة ليلاً أسمعهُ يقول كلاماً غريباً لا أفهمهُ، كأنّهُ من نبرتِهِ يلوم الشّيخ يونس على ما فعلهُ، هو لا يعي حقّاً أنّ ما يفعلهُ الشيخ يونس يكون في صالِحِهِ أولاً، لا يُدرِك حتى ما يفعلهُ ولا ما يعتمِلُ في داخله، بجهلِهِ هذا يُعريّ ما يُحاول الشيخ يونس إخفاءهُ جاهداً؛ يُعرّي ضعفهُم ووهنهُم وقلقهُم.

لو لم أتدخّل أنا في الوقت المُناسب بعد موت مُختار لكان الأمر قد تطوّر بسرعة بينهما ولكنّا الآن عائدين أدراجنا إلى الواحة، في النّهاية الشيخ يونس بشر مِثلنا يُوهن ويضعفُ وقد يستسلم في النّهاية تحت الضّغط، كان حينها سيستجيبُ لضغط ياسين المُستمر وصمتِ إبراهيم المُطبِق، هذا الأخير لم يُصدّق أيضاً ما حدث، ظلّ مصدوماً لأيّام قبل أن يعود لطبيعته تدريجياً. حينها تطلّع الشيخ يونس في وجهي مُستغيثاً كأنّه يُناديني أن أتدخّل، قلّت فجأةً كلاماً أظنّهُ أراحهُ، لا أعلمُ حتى الآن ما الدّافع الحقيقي وراء جعلِ الشيخ يونس يُؤمّنُ على كلامي هذا حين قُلت ما قُلته عن صعوبةِ عودتنا إلى الواحة، هذه الفكرة لم تخطُر ببالي إلا لحظتها، لا أعلمُ كيف أتت ولكنّها ظهرت في الوقت المُناسب وأنقذتنا.

أرى الآن أنّ زمام الأمور راحت تنسل شيئاً فشيئاً من بين يد الشيخ يونس، أراني أمتلِكُها الآن لأول مرّة مُنذ أن انطلقنا، في البداية أمّن على كلامي بعدم الرجوع إلى الواحة والآن يُعطيني المُؤن أتدبّرُ أمرها، هذا حقّاً ما كُنتُ أصبو إليه من أول ليلة، الآن قد يُعتبرُ موت مُختار بالنسبة لي ليس بتلك السلبيّة ولكنّه في نفس الوقت جلب معهُ مُصيبة أخرى جديدة أضيفت إلى جورب مصائبنا.

بعد أن فقدنا مُختار في تلك الحادثة فقدنا معهُ أحد الجمال وكُلّ المُؤن

التي كان يحمِلُها، أصبحنا الآن نتدبّرُ أمرنا بنصف المؤن فقط والتي لم يتبقّ منها سوى ماءاً وطعاماً قد يكفينا لعشرة أيامٍ فقط، سأمنعهُم من الآن فصاعداً من أن يستخدموا الماء لأغراض الاغتسال، هذا سيزيد مُدّة بقائِهِ معنا لسبعة أيامٍ أخرى على الأقل.

الصحراء من حولنا قاحلةٌ جدّاً لا تُنبِتُ بأيّ شيء والجفاف يستطيل من أمامنا. عندما سألنا إبراهيم عن سبب هذا الجفاف الغريب لم يُجِب ولكنّه تناول حِفنةً من الرّمال يتفحّصُها قبل أن يقول أن المطر لم يهطُل هُنا مُنذ ثلاثة أعوام تقريباً، الأرض تُشير إلى ذلك. قولهُ هذا أفزعنا حقّاً ولكنّه طمأننا بعد ذلك بأن أخبرنا أنّهُ خلال أيامٍ سنعبرُ بركة ماءٍ على الطّريق، قال أنّها ستظهرُ خلال خمسة أيامٍ تقريباً، هكذا قدّر المسافة بيننا من على الخريطة. ما يجعل الصحراء جميلة حقاً أنها تُخبئ بئراً في مكان ما، اعرف الماء وستعرف الصحراء والممرات التي تنفي عنها صفة غير سالكة.

بالأمس عبرنا صُدفةً بمُحاذاة واحدةٍ، بدت وكأنّها هي حقاً حين شاهدتُها من مسافة قريبة، هيئتُها ذكّرتني بذلك اليوم، لكأنّ تلك الصُدفة تُلاحِقُني عامدةً، تقصدُني أينما ذهبت، وكأنّها تُريدُ أنْ تُذكّرني بتلك الحادثة كُلّما نسيت أوتغافلت، كأنّي اعتقدتُ لوهلةٍ أنّني بدأتُ أتناساها حتى ذكّرتني هي بها، أحداثُ هذا اليوم لم تُفارق مُخيّلتي مُنذ ثلاثين عاماً، فكيف أنساها الآن؟!

رُبّما لأنّي وقتَ رأيتُها كُنّا نهبِطُ من فوق تبّةٍ عالية من الرمال، ظهرت أمامنا من بعيد فلم أتميّزها بوضوح ولكنّ الصّحراء راحت تومِضُ وتلمع ببريقٍ معدِنيّ كُلّما كُنّا ننخفِض؛ كأنّ الصخور والحصى قد غلفت بطلاء أسود مُتلألئ. حين اقتربنا أكثر عرفتُها، سطحُها هذه المرّة كان مُختلفا بعض الشيء، كان مغطى بأعداد لا تُحصى من الحصى السوداء أو السمراء التي تتّسق بانتظام لكن من دون كومة واحدة. بدا الأمر كأنّها وُزّعت بالتّساوي؛ غطاء بالسماكة ذاتها في كُلّ مكانٍ ما يمنحُ الأرضَ لونُها بينما تلك الحصى تتمتع بسطح صقيل ولامع وقد بدت وكأنها قد طُليت بزيت. السطوح لم تكُن صقلية فقط، إنّما حائلة اللّون أيضاً؛ وقسم كبيرٌ منها

أسود مع خطوط رمادية. ظهر في بعض الأماكن أديمٌ أصفرٌ حيث لا تكون الحصى مُتقاربة كثيراً مثل جلد تمساحٍ أو حراشف.

شعرنا بألمٍ شديد فيأعيننا من وهج الضوء المُرتد بزاوية حادة من الرَمل الفضي والحصى اللامعة.. بدت لي أنا بالذات وكأنّي كُنت أنظُرُ إليها في ذلك اليوم؛ نفس مقدار الوهج المُرتد من على السَطح، نفس الإحساس بالألم، ونفسوالشعور الذي أصابني يوم أن رأيتُها أوّل مرّةٍ وكانت قد اكتملت في إحدى الصَباحات قبل الغارة بيومين. وقتُها كان رجال قبيلتنا الذين كلّفهُم الشيخ مقصود بأن يُنجِزوها يعملون على قدمٍ وساق، اختارهُم بعناية ووكّل إليهم أبي يُتابعهم حتى انتهوا منها في عشرةِ أيّامٍ فقط، كان وقتاً قياسيًا بالقياس مع القبائل الأخرى، تمكّنوا خلالها من إخفاء مُعظم الثقوب الصَخرية تحت تلك السُطوح الفُسيفسائية، شكّلوها بدقّةٍ متناهية فبدت وكأنّها من فعل الطبيعة ثُمّ مرّروا من فوقها دواباً فأعطاها هذا إيحاءاً أكبر بالواقعية، بعض السُطوح الوهميّة أيضاً والتي كانت لا تُخفي تحتها شيئاً استطاعوا أن يُوزّعوها بحرفيّة في أنحاء القرية وعلى أطرافها بحيث لا تلفتُ الانتباه حتى أنّ الأمر كُلّهُ بدا كالمُعجِزة، كُلّ شيء كان مرسوماً بدِقّة بحسب ما خطّطهُ الشيخ مقصود حتى أتى ذلك الصَباح.

الصَباح المشؤوم..

كما توقّع الشيخ مقصود، هجم الطّوارق علينا بغتةً ولكن هذه المرّة (جاءوا) في الصباح. عادةً الطّوارق عندما ينزلون بأحدٍ يختارون أوقاتاً مُظلمة يختفي فيها القمر، يعتبِرون هذا من عاداتِهم المُتوارثة، ولكنّهم في ذلك اليوم نزلوا عندنا في الصَباح عند المشرِق تحديداً.

أوّل ما فعلوه كان أن طوّقوا الصَحراء من حولنا، جعلوا عند كُلّ معبرٍ للقرية خمسةَ رجالٍ أشِدّاء على الأقل مُدجّجين بالأسلحة والمتارِس حتى يُحكموا سيطرتهُم على مداخل القرية ويضمنوا عدم فرار أحد. لكأنّ أحداً أصلاً من أهل القبيلة يتجرّأ أن يفعلها في وجودِهِم، أو إن حدث وهرب،

أين سيَفِلّ في هذه الصَحراء القاحلة؟!

قصد كبيرُهُم ومِن حولِهِ حاشِيتُهُ منزل الشَيخ مقصود، كانوا يعرِفونهُ جيّداً فقد زاروه من قبل مرّاتٍ عِدّةٍ ولكن في ظروفٍ مُختلفةٍ، لكنّ كبيرُهُم هو الوحيد الذي بدا أنّهُ يجهلَهُ، كان يلتفِتُ حوله كثيراً في أنحاء القرية حتّى أنّ رجالهُ هُم من قادوه إلى البيت دون أن يعرف هو طريقُهُ بنفسِهِ. لكأن الشَيخ مقصود حينها كان يتوقّع قدومَهُم فخرج ينتظِرُهُم عند أعتاب باب منزله، وقف ومِن حولِهِ كان أبي وبضعة رجالٍ آخرين مِمّن نفَذوا حُطّة السُطوح الفُسيفسائية فوق الثُقوب. كانوا أشِدّاء، أجسادُهُم ضخمة وأطوالُهُم فارعة. هكذا اختارهُم الشيخ مقصود ليكونوا في الواجِهة أو حتى إذا ما دُفِعوا عُنوةً إلى الاشتباك مع الطّوارق ووقعَ أحدٌ منهم في قبضتِهِم يستطيع أن يتحمّل أكبر قدرٍ من العذاب قبل أن يشي بمكان أحد ثقوبِنا الصّخرية.

الشَيخ مقصود كان داهيةً في التفكير حقّاً، قبل وصولِ الطّوارق بأيام كان قد اتّفق مع أحدِ شيوخِ القبائل المُجاورة بأن نستبدِل أهل قريتِنا من الضُعفاء والنّساء والأطفال والشيوخ وضُعاف القلوب بآخرين من قبيلتِهِ، هكذا يضمنُ أنّه في حال استغَلّ الطّوارق ضعفنا وهجموا على أحداً من أهل القبيلة وعذّبوه لن يخرجوا مِنهُ بكلمةٍ واحدة حول الثُقوب، فهُم في الأساس يجهلون مكانها عندنا ليعترفوا بها، هكذا فعل أيضاً مُعظم من كان في القبائل الأخرى.

قبل الحادثة بيومين كان قد رحلَ مُعظمُ من كان في القرية من الضُعفاء والنساء والشيوخ إلى تلك القبيلة بعد أن أكّد الشيخ مقصود على كبيرها بأن يأوي هؤلاء المُهاجرين في منازل الذين سيأتون إلى قبيلتِنا بالتّبادُل. استطاع الشَيخ مقصود أن يُقنِع أهل القرية واتّفق معهم على أن يعودوا بعدما تنتهي الغارة، أخبرهُم أنّهُ في حال سرت الأمور على نحو جيّد سيُرسِل إليهم مِرسالاً يُعلِمُهُم بذلك ليعودوا. اعترض بعضُهُم في البداية، كانوا رافضين لفكرةَ أن يرحلوا ويتركوا خلفهُم بيوتهُم وماشيتهم، حينها وكّل إليهم أبي ليُقنِعهُم، أخبرهُم أنّ كُلّ شيء سيبقى على حاله حتى

رجوعِهم، طمأنهُم على دوابِهم وبيوتهم، قال أنهُ سيُكلف أهل القبيلة من القادمين بأن يعتنوا بمواشيهِم في غيابِهم وقال أنه سيُشرِف على ذلك بنفسِهِ. حرص أيضاً على تذكيرهم بمدى فَجر الطَوارق وكيف أنَهُم عندما ينزِلون بأحد لا يُفرِّقون بين رجلٍ أوامرأة، ثُمَ إنه في هذا الوقت تحديداً يضرِبُ البادية قحط ماءٍ شديد وهذا سيجعلَهُم بالتأكيد أكثر فجوراً، قصَ عليهم في النهاية وقائِع نفَذها الطَوارق في قبائل مُجاورة قبل سنوات. أخيراً ارتأى مُعظمُهُم أن يرحل حفاظاً على حياتِهِ وحياةِ أبنائِهِ بينما أقلية قليلة مَنْ اختارت أن تظلَ مهما كان سيحدث. وقتها لم يتبقَ من أهل قبيلتِنا سوى الشيخ مقصود وأبي وبعض الرِجال من حوله. أهالي القبيلة الأخرى سكنوا منازل من رحل من قبيلتِنا بالتَدريج، وزَعهُم الشيخ مقصود على مراحل وضمِن لهُم قوتاً يكفيهِم لأيَام.

لا أعرف حتى الآن كيف علِم الشَيخ مقصود بقدوم الطَوارق في ذلك الصَباح تحديداً، ولكنهُ وقف ينتظِرُهُم عند باب منزِله ومن حولِه رِجالَهُ. عندما وصلوا ترجَل زعيمُهُم من على حصانه، كان حصاناً أسوداً مقيتاً، تقدَم ورِجالَهُ نحو الشيخ مقصود في حين مدَ إليه يدهُ بالسَلام. لم يُعاجِله الشيخ مقصود ولم يمُدَ له يدهُ بالسَلام وقد بدا وجهُهُ مُكفهِرّا بعض الشيء في حين قال:

-أين كبيرُكُم ظافر أنا لا أراه بينكم؟!

ابتسم كبيرُهُم هذا ابتسامةً مُزيفة وهو يسحب يدهُ الممدودة ببُطء بعدما اعتراه خجلٌ رهيبٌ وسط رجالِه ممَا فعله الشيخ مقصود، في حين قال:

-وقتُ ظافر قد ولَى بلا رجعةٍ، أنا الآن أصبحتُ كبيرُهُم، ألم يصِلَك هذا التَغيير الذي حدث في صفوفِ الطَوارق كما وصلك حينُ قدومنا فوقفت هكذا تستقبِلَنا على الباب؟

ردَ عليه الشيخ مقصود:

-نحنُ البدو لا نستقبِلُ الطُوراق في بيوتِنا، ألم يصلَك أنت قول العرب أنَ

العقرب والطارِقيّ هُما العدوّان الوحيدان اللّذان تلتقي بِهِما في الصَحراء!

أفلتت مِنهُ ضحكةٌ رغماً عنه في حين أجاب:

-بلى وصلني، ووصلني أيضاً أنّ الصحراء لا تُخفي أسراراً عن الطّوارق.

قالها وراح يتحرّك في مكانه يُجيل بصرهُ حولهُ..

قال له الشّيخ مقصود:

-مُنذ وقتٍ طويل لم نسمع بكم، لماذا جِئتُم إلينا بعد كُلّ هذا الوقت إذن؟!

لم يُجبه في حين ظلّ يتحرّك في مكانه ينظُرُ من حولهُ في أنحاء القرية كُلّها، يتطلّعُ نحو المنازل المُنتشرة بكثافة وقد وقع نظرهُ على بعض الأهالي مِمّن كانوا يتلصّصون النّظر بفضولٍ من خلف الثقوب نحو هذا الجيش الجرّار من الطّوارق المُدجّجين بالأسلحة وقد احتموا خلف منازِلهم. كُنت أنا الآخر أنظُر إليهم من مسافة أقرب من تحت كومة القشّ تلك التي (صنع) لي أبي تحتها مخبئاً وألزمني أن أختبِئ فيه في حال حدث شيء ما، وقد كُنتُ رفضتُ أن أرحل وأترُكهُ حينها. حاولا إقناعي كثيراً هو وأميّ والشيخ مقصود أيضاً ولكنّني أبيت، لا أعلم حينها ما الذي جال في رأسي ودفعني إلى البقاء، أحياناً كثيرة أسألُ نفسي، ما الذي دفعني إلى البقاء في القرية في ذلك الحين.. رُبّما لو كُنتُ رحلتُ حينها لكان تغيّر كُلّ شيء ورُبّما ما حدث كُلّ الذي حدث.

أجاب كبيرُهُم فجأةً بشيء من الامتعاض في نبرتِهِ:

-كُنّا في طريقنا مُرتحلين حين شعُر بعض رِجالنا بعطش شديد ولم يكُن لدينا ماء فنزلنا عندكم نطلُب بعضاً منه..

-أهكذا تطلبون الماء، تهجمون على القبائل وتُفزِعون أهلها؟!

-من قال أنّنا نهجُم من الأساس، نحنُ فقط ضيوف نطلُبُ الماء، ألن تُضيّفوننا؟

-قُلتُ لك من قبل نحن لا نستقبِلُ الطّوارق في بيوتنا، ولكن إن كان

طلبكُم الماء فقط فسنعطيكُم بعضاً منه وترحلوا ببساطة..

ثُمّ أشار إلى أحد رجالاته وأمرهُ أن يذهب معهُم في حين قال له:

-دُلّهُم على مصدر الماء حتى يشربوا ويغتسلوا ثُمّ دعهُم يرحلون.

كان الشيخ مقصود يعلمُ أنّ الأمر لن ينتهي بتلك البساطة، أن يدُلّهُم هو على مكان الماء فيشربون ويغتسلون ثُمّ يرحلون دون شيء. عددُهم كبير جدّاً؛ يفوق السبعين رجُلاً بخلاف الذين اتّخذوا مواقعهُم في القرية ومِن حولها، جيشٌ بهذا العِتاد المُخيف لا يرتحل إلا في حالات الحرب!

هُم سيطلبون بالتأكيد أكثر من مُجرّد ماء ليشربوه، رُبّما في هذا القحط الشديد لن يكفيهم إلاّ أن يضعوا أيديهم على مصادر الثُقوب الصخريّة كُلّها في القرية.

****

قال.. الشيخ مقصود

حقّاً ما الذي دفعهُم إلى المجيء بعد كُلّ هذا الوقت؟!.. ماذا يُريدون منّا؛ أن نُسلّمهُم ماءنا بهذه البساطة وندعهُم يرحلون لنموت نحنُ عطشاً، أم أنّهُم يطلبون الخراب؟!

ما الذي يمنعُهُم حتى الآن من أن يفعلوها، ما الذي يمنعُهُم من أن يبطِشوا بنا.. لرُبّما أرهبهُم منظر الرّجال من حولي فارتأوا أن يُرجِئوا الأمر بعض الوقت حتى يتأكدوا من أنّنا لا ننصُب لهُم فخّاً. أو أنّهُم هكذا عامدين يُريدون أن يحرِقوا أعصابنا حتى تتلف بالرّهبة والخوف من الانتظار في كُلّ دقيقةٍ يقضونها هنا دون أن يفعلوا شيئا، الرُّعب يدُبّ في نفوس الناس كُلّما بدوا هكذا خاميلن، لو أنّهُم فعلوا شيئاً على الأقل يُظهِر نواياهم.. أو رُبّما أنّه الهدوء يسبِقُ العاصفة.

إن كانت في النهاية موتةٌ واحدةٌ فما الذي يدفعُهُم إلى الاعتقاد بأنّنا قد نستسلِم لهم بتلك البساطة؟!

سننتظِر إذن لنرى..

مرّت ساعات لم يحدُث خلالها أي شيء، الظَلام يدُقّ أبواب القرية وقد بدأ ينسُجُ بإحكامٍ خيوطهُ في الأفَق، ستحُلّ العتمةُ عمّا قريب وحتى الآن الوضعُ شبه مُستقِرّ هُناك، كبيرُهُم هذا لا يفعل شيئاً سوى أنّه يجلِس القرفصاء وسط قِلّةٍ من رجالِهِ يتحدّثون بصوتٍ غير مسموع، وصلني ذلك من كُلّ الذين أرسلتهُم هُناك ليتفقّدوا الوضع بحُجّة أنهم يملؤون الماء، أحرصُ على أن أرسِل لهُم كُلّ بِضع ساعاتٍ رجُلاً مِنّا يتفقّدُهُم ماذا يفعلون، يروْنهُم في كُلّ مرّة كما تركوهم في السّابقة، يجلسون يتسامرون في حين أنّ كبيرُهُم يجتمِعُ ببعضِ رجالاتِهِ، لا أعلمُ ماذا يقولُ لهُم كُلّ هذا الوقت، حاول كثيرٌ مِمّن أرسلتُهُم هُناك أن يستشِفّ ما يقولونهُ ولكِنّهُم فشلوا في كُلّ مرّة، لا أعلم ماذا يُخبِرُهُم أو علام يُحرّضُهُم..

لم أسمع من قبل عن طوارق نزلوا بقريةٍ إلا وأرهبوا على الأقل واحِداً من أهلِها ليفرِضوا (بعد ذلك) سيطرتهُم بسهولةٍ، هؤلاء لم يفعلوا ذلك، حتى اللّحظة مأمون كبيرهُم هذا لم يُصرّح برغباتِهِ، التقط واحداً من رجالي اسمهُ بينما كان هُناك يتفقّد الوضع. مُنذ الصّباح طلب فقط أن يشرب الماء هو وحاشيتُهُ فأرسلتُ معهُم واحداً من رجالاتِنا دلّهُم على مصدر الماء، ذهبوا فشربوا واغتسل بعضُهُم ثُمّ جلسوا يتسامرون ولم يطلُب شيئاً بعدها. لم يُضايِق أحدُ رجاله أحداً منّا إلاّ في بعضِ المُناوشات حدثت مع قِلّة مِمّن أرسِلتهُم هُناك، يقولون أنّهُم يسمعونهم يضحكون بأصواتٍ خافتة ويتسامرون كُلّما مرّ بمُحاذاتِهم أحد رجالاتنا، كأنّهُم يضحكون علينا أو يسخرون منّا. رُبّما يتّبعون بذلك نهجاً جديداً في الهُجوم؟!

سنبيت اللّيلة هذه في قلق مُشتّين، طالما أنّهُم لم يرحلوا حتى الآن فلن يرحلوا حتى الصّباح، هذا إن رحلوا من الأساس. مبيتُهُم هكذا بقربنا يُقلِقُني ويُنذر بالشؤم وبسوء الطّالع، مُنذ متى والطارقي والبدويّ يجتمِعان معاً في مكان واحد دون أن (يُكلّف هذا) عناءاً من نوعٍ ما بعدها، رُبّما أنّهُم الآن يُخطّطون لشيء جلل، أن يُباغِتونا فجأةً مثلاً بينما نكون نياماً ليُبعثروا صفوفنا ونحن في حالة السبات، لا أدري ولكنّي مع ذلك

كلّفتُ بعضاً من رجالي أن يظلّوا يقظين طوال اللّيل يتفقّدون الأوضاع، طلبتُ منهم أن يبقوا مُتخفّيين قدر المُستطاع في حين وزّعتُهم في أرجاء القرية كلّها ونصحتُهم أن يتناوبوا دوريّات المرور اللّيليّة فيما بينهم، أخبرتُهم أنّه في حال لاحظ أحدٌ مِنهم شيئاً ما مُريب يحدث عليهِ أن يُوصل الخبر لي أو ليونان من دون أن يلفت الانتباه أو يُحدِث جلبة في القرية، أحرصُ دائماً على أن أبقي رجالي بعيدين بقدر مُلائِم من أن تلتقطهم إشاراتُ الطّوارق، أن نكون على مسافة كافية من فُوّهة الدُّخان، يُصيبنا منها ما نُريد نحنُ أن يُصيبنا، لا أريد أن يحتكّ أحدٌ مِنهم بأحدٍ من أهل القرية، لا أريد أن أترُك لهم فجوةً يتّخِذوها ذريعة لأن يعبروا خلالنا، لذا طلبتُ من رجالي أن يُراقبوا المشهد عن كثب دون أن يحتكّ أحد منهم بأحد من الطّوارق، قلتُ لهُم أنّه في حال حدث شيء ما كلّف احتكاكاً عليهم أن يحتووا الوضع قدر الإمكان فإن لم ينجحوا أمرتُهم ألا يشتبكوا مهما كان.

لن ينم أحدٌ مِن أهل القرية اللّيلة حتى يحلّ الصّباح، أظنّ أنّ أحداً مِنهُم لا يأمنُ على أولادِهِ طالما هؤلاء اللّقطاء يجوبون قريتنا ليلاً، حين يحِلّ الصّباح وتشرُق الشّمس من جديد سيبقى أملا، سيُصبِحُ الوضع أكثر أمناً واستقراراً، هكذا مادام الطّوارق لم يرحلوا سيبقى أهل القرية يقظين، رُبّما يكون هذا في صالحنا، حين لن نحتاج إلى أن نبذُل جُهداً كبيراً في تحذيرهم إن حدث شيء ما، رُبّما نجِدُهُم هُم من خرجوا أولا ليُحذّرونا، ولكن هل سيقِفون معنا كتفاً (إلى) كتفٍ في وجه الطّوارق إن حدث هجوم مُباغت، هذا ما يشغلني حقّاً وهذا أخشاهُ وما يُربِكُني؟!

كُنتُ قد قطعتُ عهداً على نفسي أمام الشيخ مسعود - كبير قبيلة المسعودي- أن أحمي أهل قبيلتِهِ مهما كلّف الأمر من تضحيات و(شقاء)، قُلت هذا الكلام قبل أن أشاهد جيش الطّوارق هذا، رُبّما لو كانت سنحت لي الفُرصة بأن أراهم قبل هذا الوقت لغيرتُ رأيي وقتها ولرفضتُ من الأساس فكرة تبادل الأهالي، الفكرة التي ابتدعتُها بنفسي. إن حدث هجومٌ مُباغتٌ الآن هذا سيُكلّفني في الغالب كلمتي أمام الشّيخ مقصود، أشُكّ في

قدرتنا على أن نحمي أهلهُ أمام هذا الجيش الفرعِب، كان أن نخسر عدداً كبيراً من أهل قبيلتنا أفضل من أن أخسرهُ أنا من قبيلة قطعتُ عهداً على أن أفدي أهلها بروحي، روحي؟!.. وما الذي يُقيد وقتها، ماذا سيهُمّ في روحي إن رحلتْ وحصدت معها مئات الأرواح من الأبرياء ممّن يختبئون عندنا، ما ذنبُ هؤلاء ليموتوا هكذا ببساطة ويُدفنوا وتتناثرُ أشلاؤهم في أرضٍ غير أرضهم؟!..

أو إن قُدّر وعشت ماذا سيكون حينها الفبرَر، ماذاسأقول للشيخ مسعود حين يسألني عن أهله، عن الوعد الذي قطعتهُ هُناك أمامه؛ أن الطّوارق هجموا بغتةً ومزّقوا أهلهُ على مرأى منّي بينما لم أقدر على فعل شيء أو أن أصُدّهُم على الأقل، كيف سيتقبّل هذه الفكرة، ثُمّ كيف سأرفعُ رأسي حينها وسط القبائل الأخرى. لو أنّني أستطيعُ الآن أن أرسل له مِرسالاً يُخبِرُهُ ليستردّ أهله. لو أنّني أستطيعُ أن أهزمهُم واحداً واحداً ببساطة من خلف الطّوارق ليعودوا إلى قبيلتِهِم آمنين، كيف وهُم يسُدّون كُلّ منافذ الخروج أمامنا، لا سبيل إلاّ أن أحميهم هُنا وبهذا العتاد وفي هذه الأرض!

أحياناً أتساءل ماذا كان سيفعل الشيخ مسعود إن كان هو مكاني وكان الهجوم على قريتِهِم بدلاً منّا، ماذا كان سيفعل حينها ليحمي أهلنا، كيف كان سيصُدّ هذا الهجوم المُباغِت لو حدث؟!.. لا أدري ما يحدُثُ الآن هُناك في قبيلتِهِم، رُبّما أهلَنا يجلِسون الآن في مأمن من أن يؤذيهم أحد وأنا هُنا عليّ أن أحمي أهل قبيلةٍ غير قبيلتي بجُهدٍ مُضاعفٍ من أن نحمي أنفُسنا.. ليتني لو لم أقترح من الأساس فكرة تبادل الأهالي تلك..

ليتهُم كانوا قد هجموا هُناك قبل هنا..

ليتهم لو لم يأتوا من الأساس..

أو ليتَ قطراتِ المطر تهطُلُ الآن فجأة وتُخلّصُنا من كُلّ هذا؟!

الشيخ مسعود أقسم أمامي ألف مرّةٍ أنّه في حال حدث سوءٌ لأهلنا هُناك فلن يتردّد لحظةً واحدة قبل أن يفدي أصغر فردٍ مِنهُم بحياتِهِ، هذا يضعُني في مأزِق شديد، الشيخ مسعود لا يكذب إن قال شيئاً فعلَهُ وهذا

يُعقّد الأمر أكثر.. رُبَما إن كان هذا الجيش أمامه الآن هُناك لغيّر رأيهُ؟!

أسمعُ بعض رجالي وقد أخذتهُم حماسةٌ مُخيفة تسوقُهُم إلى أن يُنفّذوا عمليّاتٍ انتحارية وسط صفوف الطّوارق، أسمعُهُم يتوعّدونهم ويحلفون الأيمانات أنّه إن هاجم أحدٌ من الطّوارق أحداً من أهل القبيلة سيُردونهُ قتيلاً على الفور، رُبَما لن يسعفهم الوقت لذلك، لن يُعطونهم فُرصةً من الأساس ليفعلوا أيّ شيء، سيستدرِجونهُم ثم يقطعون رؤوسهم ويُعلّقونها على عواميد الدّلالة في القرية كما حدث من قبل في قُرى كثيرة، طريقة الاندفاع هذه لن تنفعنا، لا بُدّ أن نُحكّم عقولنا أكثر وإلا هلكنا جميعاً.

ما يجهلونه أنّهُم لن يصمدوا لدقائق أمام هذا الجيش الجرّار؛ هذا جيشُ حرب وجيوش الحروب لا ترتحل في الصّحراء إلا إذا كانت ستُحارب، رُبَما إن حاولوا استدراجنا لاشتباكٍ طفيف معهم وفزع واحدٌ من أهل القرية سيجلبُ هذا الخراب الكُلّيّ، سيحرِقون القرية بمن عليها ولن يقِف في وجههم أحد. في هذا الظّرف هذا كُلّه لا يهُم، ما يهُمّ حقاً أن أحمي هذه الأرض وما عليها ودون شيء آخر.. حين أفشل لن ينظُر أحدٌ إلى مُبرّراتي، سيقولون خان وتقاعص، سيقولون فشل في حمايةِ أهلنا بينما كُنّا نحنُ نُخبئ أهلهُ بين أضلُعِنا.. مهما حاولت أن أبرّر لن يشفع ذلك عندهم، لذا ما يهُمّ حقاً هو ما سيكون وليس ما سنقول.

أحياناً أسألُ نفسي ماذا كان سيحدث إن تركتُ لهُم ثقوبنا الصّخرية ورحلوا بعدها ببساطة، هل كان ذلك سيحفظ أهل القبيلة من الهلاك؟!

ماذا لو طلبتُ من أهل القبيلة الآن أن يقفوا بجانِبِنا أمام الطّوارق أو أن يُحاربوا معنا إن استلزم الأمر، كيف سيتقبّلُ هؤلاء الغُرباء فكرة أن يُقاتلوا معنا جنباً إلى جنب، أن يُضحّوا بأنفُسِهم من أجل آخرين لا يُمثّلون لهم شيئاً، ماذا لو أخبرتُهم أن المعركة في الأساس معركتُهم وأنّ الأمر بُرُمّتِهِ مُرتبط بمصيرِهم، هل سيتقبّلون الفكرة، ما لو استطعتُ اقناعهُم بذلك، هل سيقتلون الخوف في داخلِهِم و(يقذِفون) الرهبة على طول أذرُعِهِم، أو أنّهُم سيقولون، ما ذنبُنا نحن لنتورّط في كل هذا؟!

هل هُم مُدركون من الأساس بحجم الفجيعة التي تُحيطُنا جميعاً هُنا؟!

لم يسمح لي الوقت لأن أختبر أحداً من أهل القبيلة لأعرف مدى تقبُلِهم لأي شيء، الآن قد نفد الوقت، ما أخشاهُ حقّاً هو الهوجة في حال حدث هجوم مُباغت من الطّوارق، أن يهتاج النّاس فجأةً ولا يعرف كُلّ واحدٍ ماذا عليه أن يفعل، سيضعُنا هذا في مأزقٍ كبير وربّما يجعلَنا فريسةً سهلةً أمامهم، حينها سيقنصوننا قنصاً، لا بُدّ من أن نُنظّم صفوفنا قبل فوات الأوان. إن حدث مكروه لأهل تلك القبيلة ستظلّ عُقدةُ الذّنب هذه تُطارِدُني إلى ما لا نهاية..

****

مالك

.. «هُم سيطلبون بالتأكيد أكثر من مُجرّد ماء يشربونه، رُبّما في هذا القحط الشديد لن يكفيهم إلاّ أن يضعوا أيديهم على مصادر الثُّقوب الصخريّة كُلّها في القرية.»

عند مشرِق شمس اليوم التالي أفقتُ فزِعاً على نداءٍ غريب ينبعِثُ من الخارج، كان الصّوت تعلو نبرته تدريجياً حتى تحولّ فجأةً إلى زعيق حاد ثُمّ إلى صُراخ، هذا خلق في نفسي فضولاً لأعرف ما الذي يدور هُناك. تناولت إناءً من نُحاس كُنت أشربُ فيه وقلبتُهُ أمامي في حين وثبتُ فوقه على أطراف أصابعي أحاول أن ألتقط شيئاً مما يحدث في الخارج، استرقت النّظر من خلف ثُقبٍ صغير في كومة القشّ التي أسكُنها، هيّأها لي أبي ليلة الهُجوم ثُمّ وضعني فيها وأمرني ألا أبرح مكاني مهما كان الذي سيحدُث في الخارج، بعضُ أهل القبيلة الآخرين ارتأوا أيضاً أن يضعوا أولادهُم في مخابئ مُماثلة، كانت أكواماً من القش اليابس تُخفي تحتها مخابئ كثيرة، شُيّدت بجوار المنازل لأجل حالات الطّوارئ في القبيلة. على ضوء شمسٍ خفيف راح ينبعِثُ في الأفق حدّقت بصعوبة، كان ستار الليل ينزاح (ببُطء أمام عيني) في حين امتدّ شُعاع من الضّوء في كبد السّماء وراح يلتهم من حوله بنهمٍ كثيراً من النجوم التي تلألأت وقد

أسدل الستار عن سحاباتٍ كثيفة احتلّت مواضع مُتفرّقة من السّماء، رأيتُ بعضاً من رجال الطّوارق وقد كانوا يُطوّقون رجُلاً في حين كان هذا الأخير يثِبُ بينهم فزِعاً، رأيتهُ هُناك يدور حول نفسِهِ عدّة دورات دون أن يهرب خارج دائرة حِصارهم في حين كان يتلقى ضرباتٍ مُباغتةٍ من كُلّ اتّجاه، عندما دقّقتُ النّظر عرفتُ أنّهم كانوا يُحاصرونه بجيادهم بينما قد قيدوه من أحد يديه في ذيلِ فرس، كان الرّجل كُلّما صرخ أو حاول الإفلات تفادياً لضرباتِهم يشدّ الحبل المربوط في ذيل الحصان فيهيج ويركض فيقع الرّجل ثُمّ ينهالون عليه ضرباً بمُؤخّرات بنادِقِهم وهو يُحاول تفادي أكبر قدرٍ مُمكن من الضّربات بيده الأخرى، رأيتُ المشهد يتكرّر أمامي عيني مرّات؛ الرّجل يقوم من جديد يحاول الإفلات وقد أنهك من شدّة السّقوط في حين يشدّه الحصان مرّة أخرى ويسحلهُ خلفه أمتاراً، كان مشهداً مُروّعاً بحق.

على إثر ذلك الضّجيج تجمّع عددٌ كبيرٌ من أهل قبيلة المسعودي، خرجوا أمام البيوت في حين وقفوا يتطلّعون برهبةٍ لما يحدثُ بينما كانت وجوههم مُمتقعة مُتجهّمة. رأيتُ الرّجال من حول الشيخ مقصود وقد استنفروا أقصاهم واستشاطوا غيظاً، كانوا يقفون، وجوههم مُحتقنة وأكفّهم مُعتصرة داخل قبضاتهم كأنّهم ينتظرون منه إشارةً واحدة لأن يتدخّلوا وينقضوا على الطّوارق ويُخلّصوا الرجل من قبضتهم قبل أن يهلك، كان عدد الطّوارق يزداد شيئاً فشيئاً حول الرجل حتى بدا لي أنّه قد فقد وعيه وخرّ ساقطاً من طوله..

لا أدري حقاً متى بدأ هذا كلّه، بالأمس كان كلّ شيء على ما يُرام!

فهم الشيخ مقصود ما يحدث وبرغم ذلك لم يُعطِهم الإشارة ليتدخّلوا، حينها فقط صاح بغضبٍ واحدٌ ممّن كانوا يقِفون خلفه قائلاً:

-يا شيخنا، مُرنا أن نتدخّل حتى نوقف المهزلة قبل أن يلقى الرجل حتفهُ؟!

-..............

لم يُجبه الشيخ مقصود ولم يتكلّم وظلّ يُحدّق حوله في الوجوه التي بدت مُكفهِرّة بنظرة فارغة لا تنمّ عن شئ، كأنّه لا يدري ما الذي عليه أن يفعله ولكنّه في النهاية لم يُعطهم الإشارة، وفهِم الرّجال بعد ذلك أنّه لن يُعطيهم الإشارة أبداً، فبدوا أكثر غضباً وحنقاً وغيظاً.

فجأةً ظهر فوج جديد من الطّوارق على جيادهم، كانوا قادمين من الخلف وكان من بينهم زعيمُهُم مأمون، تقدّموا حتى التحموا بالفوج الأول الذي وقف على إثر وصولهم، ولمّا رآهم قادمين هدأت حركتُهُ. عندما استقرّوا في مكانهم طلع من بينهم رجُلان عريضان أبيضان على جوادين أسمرين مُتماثلين كادت أرجُلَهم المُتأرجِحة أن تطأ الأرض من شِدّة طولهم وفحولة أجسادِهِم، تقدّما ناحية الشيخ مقصود الذي وقف بين رجاله ينظر بترقّب فيما ما يحدث قبل أن يُلقيا أمامه لَفافةً ضخمة من قُماش كانا يحملانها على جيادهم ثُمّ تراجعا كما تقدّما في صمتٍ وسرعان ما انبروا خلف الصُفوف. تطلّع الشيخ مقصود بقلق إلى اللّفافة وعلى مُحيّاه علامات شكٍّ تحوم، كان يخشى أن يكون هذا فخاً ينصبُونه لنا، ثوانٍ حتى أشار إلى أحد رجاله فتقدّم ناحية اللّفافة وبحذر شدّها من طرف رُباطها وعاد بها ثُمّ راح يفُكّ عنها عُقدتها.

في تلك الأثناء كان الرجُل الآخر الذي حاصره رجال الطّوارق وسحقوه بأسلِحتِهم وتحت جيادِهِم يمُرّ من بين الأقدام مُحاولا اختراق الصفوف، لمحتهُ من مكاني يشُقّ صفوفهم على يديه وقدميه، ظلّ يزحف هكذا دقائق حتى ظهر فجأةً أمام الجميع بهيئته الرّثة وجسده الدّامي ثُم خرّ ساقطاً على الأرض بعد أن كان قد قطع المسافة التي بيننا وبينهم إلى النّصف، التعبيرات الغاضبة حينها تناقلتها وجوه الرّجال والأهالي، كان وجهُهُ مُنتفخاً ورقبتُهُ مشطورة في كذا موضع وعيناه مُتورّمتين، ظلّ هكذا راقداً على الأرض بِضْع لدقائق دون أن يتدخّل أحدٌ من أيّ طرف، قبل أن يخمُد صوتُهُ أخيراً. حين نظرتُ في وجهه ودقّقتُ فتميّزتُ ملامحهُ، كان رجُلاً يُدعى صالح، مِمّن كلّفهُم الشيخ مقصود بأن يُراقبوا الوضع أثناء اللّيل، يبدو أنّ الطّوارق قد استغلّوا غفلتنا والتقطوه مِن سكك القرية ثُمّ

راحوا يُعذّبونه حتى ينطق بمكان الثقوب الصخرية، بدا لي أنّه لم يُخبِرهم بشيء ولم يُعطِهم ما أرادوا فظلّوا هكذا يُعذّبونه حتى الصّباح، هيئتُهُ هزّت الشيخ مقصود والرّجال من حوله، لمحت في وجه الشيخ مقصود عبوساً وقهراً لم أره طيلة السنين التي نشأتُ فيها في القبيلة، بدا أمام الرجال وأمام أهل قبيلة المسعودي ضعيف الحيلة لا يقوى على فعل شيء لذا كان أقرب إلى البُكاء في ذلك الموقفِ إلاّ أنّه تمالك نفسَهُ إلى الحد الأقصى. الدّماء التي كانت تسيل من كُلّ موضِعٍ في جسد صالح أثارت في نفسي القشعريرة، منظرُهُ كان مُشفِقاً ومُخيفاً في ذات الوقت، لو أنّهُ كان اعترف لهم من البداية بمكان الثقوب الصخريّة رُبّما لما أوصل نفسهُ إلى هذا الحد ولما جعلهُم يفعلوا به ما فعلوه. أتَاتِهِ تلك قبل أن تنقطع خدشت معها قلوب الرّجال من حول الشّيخ مقصود، حرّكت في داخلهم ساكناً فراح صوتُ كثيرٍ منهم يرتفع باسمه تدريجياً حتى صار فجأةً صياحاً عالياً رجّ الأرض، الحماسة أخذت الجميع للمرّة الأولى فراحوا يشتمون الطّوارق ويسُبّون زعيمهم بصوتٍ جهوريّ علناً، هذه أوّل مرّة يتجرّأ فيها أحدٌ عليهم مُنذ أن قدِموا في الأمس، هذا ذهل الجميع ولكنّه أخافهم في نفس الوقت، الشيخ مقصود نفسه ظلّ مشدوهاً يُطالع ما يحدُث بعين القلق ورجاله يسُبّون الطوارق بأفظع الألفاظ في حين وقف هو صامتاً لا يتكلّم ولكنه في نفس الوقت لم يمنعهم أيضاً من أن يتكلّموا، كأنّه لأول مرّةٍ يُعطيهم الإذن بالتمرّد أوالعصيان.

صياحُهُم هذا استفزّ الطّوارق فأخذ بعضُ رجالهم يُطلِقون الرّصاصات الترهيبيّة في الهواء لتخويف النّاس ولتحذيرهم حتى يسكتوا ولكنّ ذلك لم يمنع بعض الرّجال من أن يستمرّوا في صياحِهِم وسبابِهِم بنداءات فرديّة مُتفرّقة.

هُنا فقط دوت صرخةٌ مكتومة أرهبت الكل، أتبعها صمتٌ مُطبقٌ مُفاجئ و(غريب).. صرخةٌ جعلت بعض الطّوارق أنفسهم يتراجعون في أماكِنِهم دون أن يدروا. صرخةٌ لفتت الانتباه إليها من كُلّ الاتجاهات، صرخةٌ سمعها كُلّ من كان في القرية وهي التي قصّت شريط الحرب وقتها. كان

مصدرُها الرَجل الذي كلّفهُ الشيخ مقصود بأن يفتح لَفافة القُماش التي ألقاها رجُلا الطَوارق أمامه وتراجعا، رأى في داخِلِها جُثة؛ جُثة هامدة لرجُلٍ آخر أربعيني اندثرت ملامِحه تماماً نتيجة تشوُهٍ حاد في أعضائهِ.. ما جعلهُ يصرُخ بهذا الشكل المُخيف أن ذلك الرَجُل المُشوَهة أعضاؤه كان هو نفسهُ شقيقه - عن دون قصد كلّفه الشيخ مقصود بأن يفتح نعش أخيه – وهو رآهُ جُثة هامدة أمامه مُشوَهة أعضاؤه فتراجع لا إراديّاً إلى الخلف وصرخ فزِعاً حتى بكى. الجميع تبدّلت ملامِحُهم في تلك اللّحظة، بدت عليهم علامات الذهول والفزع من منظر الجُثة المُرعب أمامهُم.

أنا أيضاً صرختُ فزعاً صرخة لفتت الانتباه إليّ، جعلت بعض رجال الطَوارق يتطلّعون نحوي بشك أو بالأدقّ نحو كومة القش التي أختبئُ في داخلها، منظرُ الجُثة المُشوَهة هذا أفزعني فصرخت عن دون قصد، كان منظرا مقيتا يبعثُ على الغثيان!

نظروا نحو كومة القش التي أقبعُ تحتها دون أن يدروا ما الذي بداخلها، فقد تسمّرتُ في موضعي، كاد قلبي أن يهبط بين قدماي وأنا أنزوي هُناك خوفاً من أن يكشفوا أمري، حاولت حتى أن أدفن أنفاسي في داخلي للحظاتٍ حتى لا أصدر أي أصوات تبعث على الشك، حينها قد يعتقِدون أنّنا ننصُب لهُم فخّاً ويبدؤون في ضرب كُلّ الأعشاش الأخرى دون تفريق وهُم لا يُدركون أنّهُم بذلك سيقتلون أطفالا أبرياء هربوا من بطشهم ليحتموا فيها، ستكون حينها الكارثة العُظمى.

مع كُلّ هذا الصمت فجأةً تحرّك منهم ثلاثة رجالٍ على جيادِهِم وتقدّموا نحوي، قُلت في نفسي لا بُدّ أنّهم قد كشفوا أمري، عندما اقتربوا ظلوا يحومون حولي لدقيقة دون أن يلحظوا كومة القش أو ما تحتها، كُنت أنا أكتُمُ أنفاسي جاهداً حتى لا يشكّوا أو يلحظوا شيئاً مُريباً يدور، ولكنهم في النهاية عادوا أدراجهم إلى صفوف الرّجال. هذا أراحني بعض الشّيء في حين أفزع والدي على العكس فرأيتُهُ يتقدّم الصفوف وهو ينظر نحوي بترقّبٍ، بدا لي من بعيد أنّه قد استعدّ للاشتباك في أي لحظة فشمّر عن كُمّه وهزّ سلاحهُ في جنبه، رأيتُهُ يفعل ذلك كُنت ما زِلتُ أرقبه من ثُقب

الكومة الصغير، إن حدث وكشفوا أمري بالتأكيد لن يسكُت أبي عن ردعهم إن حاول المساس بي وبالتالي لن يقِف الشيخ مقصود ورجال القرية أيضاً مكتوفي الأيدي، هذه المرّة سيشتبكون معهم. القلق من أن يكشِفوا مكاني وتحدثُ الكارثة هذا ما ظلّ يُراودني طيلة الوقت.

ولكن فجأةً تبدّل كُلّ شيء،

كان هذا خلال لحظات..

حين نهض الرّجل القابع أمام جُثّةِ أخيه المُشوّهة فجأةً وانطلق نحوهم كالسّهم في حين انقضّ على واحدٍ منهم أسقطهُ أرضاً واقتلع منه سلاحُهُ وراح يضرِبُ فيهم بصورةٍ عشوائيّة، فأسقط منهم قتيلين على الفور..

هذا غيّر كُلّ شيء وقلب الموازين..

كُلّ ما حدث بعدها حدث في دقائق معدودة حتى أنّ الطّوارق أنفسهُم لم يتوقّعوه..

اهتاج الجميع حينها وصار رجال الطّوارق يتراجعون بشكلٍ عجيب للخلف وبعشوائية دون حتى أن يُحاولوا ردّ الاعتداء عليهم كأنّما شُلّت أيديهم فجأة، وركض بعضهم يحتمي في الخلف في حين ظلّ هذا الرجُل يتقدّمُ صفوفهم يخترقها ويقتلُ منهم أكثر حتى قنصه فجأةً واحدٌ منهم على غفلة فأرداه قتيلاً في الفور، حينها تنفّسوا الصُّعداء ولكن بعد أن كانوا قد فقدوا في تلك الهوجة على الأقل ستة رجالٍ منهم. حدث بعدها أن عرفت أنّ هذا الرّجُل الذي قتلوه للتو كان أخاه واحداً مِمّن وكّلهم الشيخ مقصود بأن يُتابعوا عمليات التفقّد الليلية، بل كان هو نفسهُ من أختير ليبدل دوريّته اللّيلية في ذلك اليوم مع صالح الرجل الزّاحف الذي ضربوه وظلّ يئِنّ حتى مات. بدا أنّهم قد قنصوا الأول ثم بعد ذلك راقبوا الثاني حتى أتاه ليستلم منه فقبضوا عليه هو الآخر وفعلوا به ما فعلوا.

الطّوارق بعد ذلك راحوا يُطلِقون الرّصاصات بعشوائية على الجميع وهم يُحاولون السيطرة على الموقف، الشّيخ مقصود ورجاله والأهالي تفرّقوا،

كُلّ واحدٍ منهم فرّ في جهةٍ، بعض الرّجال مِمّن كانوا حول الشيخ مقصود احتموا خلف سواتر تُرابيّة وراحوا يتبادلون إطلاق النيران مع الطّوارق، سقط منّا كُثر في حين سقط منهم قليل ولكنّهم مع ذلك اهتزّوا وتراجعوا فجأة، لم يتوقّعوا هذا أبداً. رأيت كهلاً من الأهالي فزع فجأةً والتقط سلاح الرّجل الذي قتل منهم خمسة وقتلوه ثمّ راح يضرب فيهم بجنونٍ فأصاب بعضهم وقتل آخرين، تقدّم بجانبِه طفل لم يتجاوز الخامسة عشر وراح يُسانده بقطعة سلاحٍ وجدها على الأرض من مُخلّفات من سقطوا من الطّوارق. جُنّوا لأجل هذا وارتفع بطشُهم في حين ازداد هياج النّاس أكثر، ظلّ الجميع يركُضُ نساءاً وأطفالاً وشيوخاً في اتّجاهاتٍ مُختلفة وأعيرة النيران تتطاير من فوق رؤوسهم بسُرعة الصّوت، رأيت أناساً كُثر يحتمون خلف أسوار المنازل في حين تقدّم عددٌ قليل راحوا يُساندون الرّجال، رأيت أبي من بعيد وقد احتمى خلف صخرة كبيرة وراح يضرب من خلفها، رأيتُهُ من بعيد يقنُصُ رجالاً فيسقطون من على جيادِهِم كما الثّمر يتساقط (تواليا) عندما تهزّ الشجرةُ بعُنف.. وتنتظر!

في اللّحظات التّالية من المعركة حدث شيء غريبٌ أذهلني عندما شاهدت بعضاً من رجال الطّوارق يتساقطون من على جيادهم دون أن يمُسّهُم أحد أو يقترِب حتى منهم، لا أدري كيف حدث هذا ولكنّني كُنت أراهم بِملء عيني يتساقطون فجأةً ومن دون مُبرّر.

هكذا استمرّ مشهد العِراك والسّقوط والكرّ والفرّ لدقائق حتى اخترقت قدمي فجأةً رُصاصة طائشة، لا أدري من أين جاءت أو كيف ولكنّها عرفت طريقي وفتقت باطن قدمي، سكنت في داخلها بلحظة، يبدو أنّها قد طاشت في الهوجة وعرفت طريقها إلى مِخبئي وأصابتني، صرخت حينها صرخة عالية وناديت باسم أبي، من شدّة الوجع لم أتحمّل الألم فصرت أصيح بأعلى صوتي وجاء أبي، ظللتُ مشدوهاً للحظة عندما أتى، كُنت أشكّ أنّ أحداً قد يسمعني في تلك الهوجة ولكنّني وجدتُهُ فجأةً فوق رأسي فجأة، كان يُحاول إخراجي من مِخبئي، لا أعلم كيف أتى حينها أو متى سمعني، حتى أنّ الوقت لم يسعني بعدها لأعرف، أكان جاء صُدفة أمْ

أنّه سمِع ندائي، ولكن من يهتم، المهم أنّه قد أتى وأتى في الوقت المُناسب، تفاجأت به من فوقي يحاول سحبي من ذراعي وإخراجي، وكان قد تفاجأ هو الآخر من منظر الدّم في قدمي، هذا ما جعلني أشُكّ بعدها أنّه قد جاء تلبية لندائي. راح يُخرِجُني بصعوبة وهو يضغط بأحد يديه على مكان النّزيف ليوقف الدّماء المُنبعثة كالنّافورة من قدمي. في تلك الأثناء بدا أنّ أحداً من رجال الطّوارق قد لمحه من بعيد وهو يجُرّني فصرخ فزعاً في أعوانه مرّة واحدة قائلاً:

-فخّ.. هُناك فخّ.. اضربوا أكوام القش!

هذه الجُملة رأيت بعدها مشهداً لم أنسهُ؛ كانوا أطفالاً يخرجون بالجُملة وبشكل عشوائي من مناطق اختبائهم في أكوام القش عندما قصفها الطّوارق، راحوا ينفرون ويفرّون نحو أسرهم الذين عاد بعضُهم ليتلقّفونهم بأذرُعِهم ويُخبئونهم في أحضانهم ويذودون عنهم بأنفُسِهم في شجاعةٍ غريبة في حين راحت رصاصات الطّوارق تخترقُ أجسادهم فسقط منهم قتلى كثيرون. هذا المشهد لم يُفارق مُخيلتي أبداً.

ما علمته بعد ذلك أنّني بجهلي كُنت قد أفسدتُ مُخطّطاً أعدّه الشّيخ مقصود دون أن أقصد. حين صرخت وعرف الرّجال مكاني دكّوا بقيّة المخابئ، لم أكُن أعلم أنّ تلك المخابئ لم تكُن تأوي أطفالاً فقط، بعضُها كان يحوي قنّاصة وضعهم الشيخ مقصود لأجل أن يلتحِموا في حال الهجوم وهُم من كانوا يُسقِطون رجال الطّوارق بصورة غريبة أذهلتني ومات مُعظمُهُم عندما ضرب الطّوارق الأعشاش وحرقوها.

فجأةً ونحنُ نركُض سقط أبي، كان يحمِلُني بين أذرعه وكُنّا نهربُ قاصدين أحد السّواتر التُرابيّة في حين قنصهُ واحدٌ من رجالهم فأسقطهُ أرضاً وزحفنا لأمتار، قبل أن أراه بعد ذلك وقد انبعثت منه نافورة من الدّماء كست لحيته ونزلت نحو صدره، مسّ بعضها جسدي ووجهي، جاءت الطّلقة في رقبتِهِ فأردتهُ قتيلاً على الفور، لم أستطع حتى أن أودّعه، لحُسن حظّي من الأساس أنّنا عندما كُنّا نركُضُ وقبل ثانية واحدة

من أن يسقُط أبي كُنّا قد دخلنا مُحيطاً به بعض الرجال من قبيلتنا يضربون على الطّوارق في الجهة المُقابلة، عندما سقطنا وزحفنا أمتاراً على الرّمال أصبحنا في مُنتصف ذلك المُحيط تحمينا ظهور الرّجال، هذا حماني بالتأكيد من أن أظهر مكشوفاً أمامهم بجسدي فتُصيبُني رُصاصاتهم كما أصابت أبي في العراء، تمنيّت حينها فقط أن أرى وجه الذي ضربه، كان وجهُهُ سيظلّ محفوراً في وُجداني ما تبقى من عُمُري حتى أنتقم منه.

فجأةً وعلى غير المألوف رأيتُ أهالي من قبيلة المسعودي يتقدّمون بُخطىً ثابتة نحو الطّوارق، راحوا يمشون بثباتٍ أفزعهُم، راحوا يظهرون من كُلّ حدبٍ وصوب وراحو يُطوّقونهم من كُلّ جانب، كان بعضُهُم يشتبك وآخرون عُزّل تلقّوا ضرباتٍ في صدورهم ولكن ذلك لم يُثنِهِم عن التقدّم، ظلّوا يتقدّمون هكذا وقد علا صوت صياحِهِم بكلمة واحدة رجّت القرية:

-ارحلوا..

-ارحلوا..

هكذا ظلّوا يتقدّمون والرصاصات تخترق صدور بعضهم فيسقطوا دون أن يتراجع واحدٌ منهم حتى ضاق الخِناق كثيراً على الطّوارق فتقهقروا وتراجعوا. ثُمّ لحِقهُم الأهالي بعد ذلك في حين كانوا يلتقطون الأسلحة المُلقاة على الأرض والتي خلّفها الطّوارق وراءهم وراحوا يُطلِقون عليهم النّيران بكثافة بينما كانوا هُم يُطلِقون من الخلف وهُم يتراجعون حتى فرّوا في النّهاية.

كُلّ شيء حدث في ذلك اليوم حدث فجأةً، فجأةً بدأت المعركة وفجأة انتهت، فجأةً مات أبي وفجأة حييتُ أنا، فجأةً هربوا وفجأة انتصرنا، فجأةً حدث كُلّ شيء وفي هذه اللحظات ظلّ شعور غريب يُراودني ويُراود أهل القبيلة كُلّها ممّا كان.

لو لم أصرُخ في ذلك اليوم لرُبّما نجونا وعاش أبي، لو لم أصرخ في ذلك اليوم لرُبّما كُنّا قد خرجنا بعدد أقل من الضّحايا.. لو لم أصرخ في ذلك

اليوم حين اخترقت الرُصاصة قدمي فقط..

لو لم تخترق تلك الرّصاصة قدمي من الأساس، لو أنّها جلّت.. أنا من تسبّبتُ في كُل هذه الفوضى التي كانت وأنا من تسبّبتُ في مقتل القنّاصة وبعض الأطفال والشيوخ، أنا من تسبّبتُ في مقتل أبي وربّما الشيخ مقصود أيضاً.

تلك المعركة خلّفت في داخلي ندوباً كثيرة تفاقمت والزّمن، مشاهِدها العنيفة ظلّت عالقة بالصّوت والصّورة في وُجداني، أبث أن تنزاح بسهولة. يوجد قول مأثور لدى الطوارق:

«هُناك أراضٍ مملوءة ماء لعافية البدن وأراضٍ مملوءة رمالا لعافية الرّوح».. نحن أرضنا امتلأت دماءً في ذلك اليوم لأجل أن نعفى ونحيا، لولا تلك الدّماء التي رَوَت أرضنا لما كان لنا اليوم من وجود.

نجحت خُطّة الشيخ مقصود حينها ولم يكتشفوا مكان الثُّقوب الصخريّة التي خبّأناها تحت السطوح الفُسيفسائية وحفظنا ماءنا منهم ولكنّنا في المُقابل فقدنا رجالاً كثيرين. أوّلهُم أبي وبعدها الشيخ مقصود، خسرنا أيضاً بعض الأهالي والأطفال من قبيلة المسعودي ولكنّنا حافظنا على الغالبيّة العُظمى منهم، لم يتواجد الشيخ مقصود بعدها ليبرّر ما حدث، في الحقيقة ما كان لوجوده أي معنى بعد الذي حدث فقد ظلّت تلك المعركة وصمة عار في جبين الطّوارق، دحرناهم فيها بأقل عتاد مُمكن وبلا مُقاتلين تقريباً فلم يجرؤ بعدها أحدٌ منهم على الاقتراب من أرضنا لسنوات. تركتُ بعدها القبيلة ورحلت ولكنّني مع ذلك لم أنس يوماً ثأري، ثأر أبي وثأر الشيخ مقصود، ثأر أطفال قبيلة المسعودي الأبرياء الذين فجعوا قلوب أهلِهم، ثأر كُلّ من مات في ذلك اليوم وعلى تلك الأرض. أعاهِدُهُم جميعاً على أن أقتصّ لهم من الطّوارق، سأجلبُ لهم ثأرهُم من كبير قبيلتهم مأمون، أقسِم أنّي لو رأيتُهُ لقطعت رأسه وعلّقتُها على عواميد الدلالة في قريتهم كما فعل هو ورِجالُهُ من قبل.

الفصل الثاني

ياسين

أسمعُهُ يُناديني هامِساً عن كتب، يُكلّفُني كُلّ ليلة حين نكون نياما أو حين أكون شارداً وحدي في الظّلام أتطلّعُ نحو السّماء، دائماً يختار الظّلام، والظّلام الدّامس. هذه المرّة الأولى التي أسمعُ فيها صوته يُناجيني بينما السّماء من فوقنا مبدورة بنجومٍ كثيرة كالثّقوب ولا قمر، ذلك كان مُنذ يومين، رُبّما أنّه رأى أنّ هذا وقتاً مُناسباً لاختلاق حديث جديد؛ حديثٍ كاملٍ هذه المرّة.

كان في كُلّ مرّة يقول اسمي ويسكت، يصمُتُ بعدها كثيراً لا يتكلّم حتى مللت. صِرتُ بعد ذلك أسمعُهُ يختلِقُ أحاديثاً جانبية مع نفسه، يقول لها أشياء غريبة لا أفهمُها، ولكنّه في هذه المرّة بالذّات التي كلّمني فيها قبل ليلتين أفصح لي عن مشاعره الحقيقية الكامنة في نفسه لأول مرّة، قال لي أنّهُ يشعُرُ بحُزنٍ وألمٍ شديدين، لام الشّيخ يونس على فِعلتِهِ، عذرتُهُ.

أحيان كثيرة كُنت أرغب في أن أُبادِلهُ أطراف الحديث علّه يفهم أو يستوعب، أقول في نفسي أنّه رُبّما لا يعلم هو ما يعتمل في داخل الشّيخ يونس الآن، بالتأكيد هو يجهل ذلك وإلاّ لما كان قال ما قاله فأعذرُهُ. في الحقيقة أعذرُ أيّاً مِنهُما أو أنّني أشعُرُ آسفاً بذلك. ما يجعلني أتراجع في كُلّ مرّة وأسكُت قبل أن أفاتِحه الحديث، أنّني حقاً لا أدري متى أصبح الشّيخ يونس بهذه القسوة، لم أعهد فيه ذلك من قبل وأفشلُ في أن أجد مُبرّراً واضحاً لكلامي، لا أجد كلاماً أقوله لأبرّر ما فعله، أقول أحياناً رُبّما أنها الطريق الوعرة أمامنا أوالظّروف القاسية التي عشناها هُنا في الصّحراء أو أنّها الظّروف التي عاشها هو نفسه من قبل في الواحة، رُبّما هذا ما زاد من قسوته إلى هذا الحدّ وجعله فقد ليونتهُ بشكل غريب. أحاول أن أبرهِن في نفسي على ذلك في حين أكتشف أنّ الوضع في

الأساس معكوس، رُبَما هو كذلك فعلاً..

أقول في نفسي:

الشيخ يونس تحمّل بما فيه الكفاية، ما يعتمل في داخله من صراعات زاد عن الحدّ المسموح به. صراعات بالجُملة ترسّبت في داخله على مدار سنين وعلى مراحل؛ تدفّقت ثُمّ تعقّدت وتشابكت مع بعضها البعض فتركت في نفسه أثراً عظيماً وندوباً بالجُملة، شكّلت حول نفسها حلقة يصعُبُ اختراقَها، تتغذّى عليه تدريجياً، من يقوى على هذا كُلّه.. بل من يقوى على مثل هذا ثُمّ يبقى هكذا مُتماسِكا، الصّدمات والخيبات في حياة الشيخ يونس مُدمّرة، خلّفت بعدها حمولاً ثقيلة يصعُبُ احتمالها، قليلون جدّاً هُم من يقدِرون على ذلك بقدْر الشّيخ يونس، ولكن إلى متى حقّاً سيظلّ الوضع هكذا ثابتاً لا يتقهقر؟!

التفتُ نحوه وكنت قد عقدتُ العزم على أن أحادثه هذه المرّة لأشرح له، وجدتُهُ قد رحل، اختفى فجأة.

في كُلّ مرّة أتّخذ قراري بأن أكلّمه لأبرز له بعض الحقائق يكون قد رحل فجأةً، أنظُرُ حولي فلا أجِدُهُ ولا أجِدُ أحداً، ولا حتى أسمعُ صوتاً.. كيف يستطيعُ أن يختفي بهذه السّهولة في كُلّ مرّة، أين يذهب إذن؟!

أتساءل في نفسي أحياناً ما الذي يدور، أنظُرُ حولي، يكون قد تلاشى واضمحلّ وبقي منهُ سحابة واحدة من دُخان تتراقصُ أمام عيني لثوانٍ قبل أن تختفي هي الأخرى، يسبح أثرُها الباقي في نقطة واحدة إلى المركز فيختفيان معاً، هذا يحدثُ كُلّ مرّةٍ؟!

لا أدري حقّاً ما الذي يدور؟!

أسأل نفسي: أين ذهبت المعايير؟!..

أين معايير القياس، أين معايير الحس والإدراك، أين معايير الشّعور. رُبَما هُم كذلك يشعرون بما أشعُرُ به ولكنّني وحدي لا أرى طريقاً أمامنا ولا أقدُر

حتى المسافات التي نقطعُها، لا أرى أصلاً أيّ مسافة نقطعُها.

كُلّ شيء من حولنا يزداد ويتّسع بشكلٍ مُخيف، الرمال من حولنا تتمدّد، والكُثبان الرّملية تتّحد في النّهاية مع السّماء، يفصِلُ بينهُما خطٌّ واحدٌ دقيق في المُنتصف. الأشجار انعدمت نهائياً، مُنذ ما يُقارب الثلاثين يوماً لم أصادِف أمامي شجرة واحدةً أو شيئاً واحداً أخضراً حتى كِدتُ أنسى اللّون نفسهُ، وإلاّ فكيف اختلّت المعايير هكذا فجأةً؟!

متى نصِلُ إذن؟!

أسألُ إبراهيم فيقول أنّنا اقتربنا ولا يُشير إلى وقت، يقول متى نعبُرُ جبل الأخضر نكون قد وصلنا، أستفسر: ما هذا جبلُ الأخضر، يقول: جبلٌ خلفه رُكام بُركان، رمالُهُ عجيبة، لونها أخضر قان يميل إلى الأزرق لذا سمّاه جبل الأخضر. يستمرّ في عدّ الكُثبان الرّملية التي نعبُرُها، يقول أنّه يُحصيها ليعرف الطّريق ويستفيد من اتّجاه السلاسل الرملية، لا أفهم.. تارةً أخرى أراه ينظُر نحو النّجوم في السماء ويعُدّها، يقول أنّه بذلك يتميّز الطّريق، أيُّ طريقٍ تلك التي يحكي عنها؟!

قبل عدّة أيّام كان قد طمأننا أنّنا سنُصادف على الطّريق بركة مياهٍ بعد أن شارفت مؤونتنا من الماء والطّعام أن تنفد، بقِيَ منها ما يكفينا لسبعة أيامٍ على أقصى تقدير، هذا إن أحسنّا استخدامها واقتصدنا إلى أبعد حدّ، لا بُدّ أن نحصُرها وأن نجِد مصدراً آخر للمياه وإلا هلكنا.

مُنذ أربعة أيّامٍ ونصف قال ذلك، أنّنا سنُصادف البركة في نهار اليوم الخامس وحتّى الآن أنا لا أرى شيئاً أمامي يدُلّ على وجودها. لا طيور مثلاً تُحلّق في السّماء عالياً من بعيد لتشي بمكانها، تظلّ تدور حول نفسِها بانتظام وتُصدِر أصواتاً، ولا حتى لفحةٌ من هواءٍ بارد تضربنا ونحن نسير لنعرف أنّنا اقتربنا، لا شيء يُنذر بوجود أيّ شيء؟!

يصلُني صوت مُختار هامساً في أذُني من جديد، ها قد حضر مرّة أخرى.. يحضُرُ حين لا أكون مُستعِدّاً، هذه المرّة رُبّما يقول شيئاً مُختلِفاً. أنتبه،

أحاول أن أستحضر كامل تركيزي لأسمعه جيّداً ماذا يقول هذه المرّة؟

كالعادة يلوم الشّيخ يونس على فعلته، يلومُهُ لأنّهُ تركهُ وحيداً في الصّحراء ورحل، يصِفُ لي شعوره من هُناك ويصِف اللّيل؛ يقول أنّ هذا الأخير غريب جداً، يعترف لي للمرّة الأولى أنّه أصبح يخشى اللّيل، يراه مُتناقِضات، عدوّاً ورفيقاً فاتناً في ذات الوقت، على الرغم من كونه قاتلاً فهو مغوٍ بدرجة مُعقّدة، يقول إنّه تكثيف لكُلّ ما هو جميل ولكُلّ ما هو خطيرٌ جدّاً.

أصبح الآن يلومُني أنا الآخر، يرى أنّني شاركتُ في خُذلانه وقت كُنّا نتناقش هُناك بعد الإعصار. يقول أنّه لولا تقاعسي في موقفي هُناك في ذلك اليوم لما كان الشيخ يونس سيتّخذ قراراً بتركه وحيداً في الصّحراء. هذه المرّة يلوم نفسهُ حتى..

أتعجّب!

علام تلومُ نفسك يا مُختار، علام كُلّ هذا اللّوم من الأساس، أما أخبرتك بالحقيقة كاملة، ألم أخبِرك من قبل ما كان وما سيكون؛ قُلت لك أنّنا سنصِل إلى الوادي قريباً وسنأخُذ الذّهب وسأحفظُ لك نصيبك كاملاً. سأعطيك إيّاه عندما نعود. أهذا يكفي لأن تتوقف عن لومنا وعن لوم نفسك؟!

أنظُرُ نحوه لأسألهُ فأجِدهُ قد اختفى من جديد، هكذا رحل ببساطة من دون أن يُجيب على تساؤلاتي، لا لمرّةٍ واحدة أجاب، رُبّما في المرّة القادمة يُجيب، هذا ما أقولهُ في نفسي دائماً ثُمّ أبتسم.

لا أعلمُ متى يزورُني من جديد ولكنّني عندما يأتي في المرّة القادمة سأعلمُهُ بالمُستجدات، سأعلمه أنّنا اقتربنا جدّاً من الوادي، هكذا يقول إبراهيم، سأخبره أيضاً أنّ الانتظار قد طال وأنّ الشوق راح لهيبُهُ يعتمل في داخلي.

سأخبِرُهُ بذلك وأنتظر منه ردّاً عاجلاً في المرّة المُقبلة.. علّه يجيء!

يونس

القاعدة الرابعة: تسمح بئرٌ واحدةٌ بعبور صحراء ويُنذِرُ ماءٌ قريبٌ من السَطح بظهور واحة.

جُنّ ياسين، أسمعُهُ يهذي ليلاً، يُكلّم نفسه ويختلِقُ معها أحاديثاً كاملة غير مفهومة!

أقول في نفسي رُبَما هذا كُلّه من أثر التلاعب بالمقاييس في ذهنه؛ مُنذ وقتٍ طويل لم نر أمامنا سوى هذه الرّمال الذهبية تومض وتلمع ببريق حاد تحت أشعة الشّمس. جُزء من هذا التشوش في الإدراك الذي أصابه رُبَما هو نتيجة غياب الطبقة النباتية أمامنا على الطّريق وبالتالي عدم قدرته على استعمال المقاييس العادية للأشجار لتقدير المسافة وإلاّ فكيف اختلّت موازينُهُ هكذا فجأةً وراح يُحدّث نفسه ويهذي معها باستمرار؟!

بالتأكيد موت مُختار أثّر فيه ولكن أيُعقل أن يصل به إلى هذا الحد من عدم الاتّزان فيُكلّم نفسه؟!

بالأمس صادفنا جملاً ميتاً على الطّريق، كان مُتآكلاً وبعض أشلائه مُبعثرة حوله. ما تبقّى من حُطام جسده كان مكشوفاً في العراء. لبُرهةٍ شككتُ في أمره فطلبتُ من إبراهيم أن يتفحّص أثره لنعرف إن كان هو نفسه جملَنا الذي فقدناه يوم الإعصار أم ماذا، قُلتُ في نفسي أيُعقل أن يكون هو نفسُهُ، كان جسده مُتآكلاً إلى حدّ عجيب لم يسمح لي بأن أتميّزه بينما لم يبق منه سوى بقايا هيكلٍ عظميّ صغير وأجزاء أخرى مُبعثرة هُنا وهناك وقد نخرها الدّود.

أخذ إبراهيم ينظُرُ في بقايا خُفّيه المُتآكلين بحرص يُحاول أن يلتقط منهما شيئاً، دقّق فيهما طويلاً ثُمّ بعد ذلك نظر في الآثار التي كانت حوله، رجّح في النّهاية أن يكون هو نفسه جملَنا فقال:

-أعتقِدُ أنّهُ هو.

سألتُهُ مُستنكِراً كيف يكون ذلك، طلبت منه أن يُعيد النظر مرّة أخرى في

أثره، ولكنه في المرّة الثانية أكّد لي حديثه قائلاً هذه المرّة:

-هو نفسه الجمل الذي فقدناه في الإعصار، آثاره تدلّ على أنّه قد جاء من بحر الرّمال لا من سهل حصى أو غيره.

فئد أنّ جمالاً من بحر الرّمال تتمتّع بباطن أخفاف ليّن وتتميّز بقطع ممزقة من جلد طريّ في حين أنّها إن جاءت من سهول الحصى تكون أخفاقها ملساء مصقولة. قال أيضاً أن هذا الجمل لم يشرب ماءً مُنذ أكثر من خمسة عشر يوماً أو يزيد، اكتشف ذلك من بقايا روثِه المُنتشر في المكان.

إجابتُهُ تلك جلعت سؤالا واحداً يقفز إلى ذهني في الحين، هل هذا الجمل قد عاش هُنا لفترةٍ ما قبل أن يلقى حتفه؟!.

تساءلت كيف أنّ روثه يملأ المكان هكذا إن كان هو حقّاً جملَنا الذي فقدناه يوم الإعصار وقد مات في أثره، لو أنّه هو حقاً هو لما كان لروثِهِ أثرٌ هُنا في المكان.. هذا افتراضي الذي جعلني أشُك في الأمر فنقلتُهُ لإبراهيم في الحال، ولكنّه أبدل رأيي في ذات الوقت بعدما قال أنّه الجمل ربما قد عاش لسويعات هُنا أو ليوم كامل قبل أن يموت.

سألتُهُ حينها عن قُدرته في إمكانية تحديد الوقت المناسب لموت الجمل، ولكنّه نفى أنّه باستطاعته تمييز ذلك. ظللتُ أفكّر في الأمر لفترة قبل أن أرضخ في النهاية لكلام إبراهيم.

الغريب أن وصفه كان صحيحاً تماماً لمَا قاله..!

عندما استرجعنا شريط الأحداث وقدّرنا الوقت، وجدنا أنّ الإعصار كان قد ضربنا قبل ما يُقارب الخمسة عشر يوماً وليلة من مُصادفتِنا لبقايا الجمل، ولكن ما جعلنا مُتيقّنين في النّهاية من كلام إبراهيم هو أنّنا بعدما تركنا الجمل خلفنا وأكملنا سيرنا وجدنا بقايا لأشياء كان يحملها نفس الجمل وقت أن كان بحوزتِنا، وجدناها مُلقاةً على بُعد ما يُقارب النصف ميل منه؛ كانت بقايا أطعمة وقطع صغيرة من قماش مُمزّقة وأقنية فيها

مياه كُنا قد جلبناها معنا، وجدنا أيضاً صندوق التبغ نفسه الذي جلبه ياسين كهديّة لشيوخ قبائل الصحراء في حال نزلنا عند أحدهم، كان كما هو لم يُصبه شيء، هذا صعقنا وجعلنا مذهولين؟!

أيُعقل أنّ الإعصار قد حمل الجمل معه كُلّ هذه المسافة وألقاه هُنا على بعد أميال من المسير ثُمّ عاش لفترة قبل أن يموت.. بالتأكيد هذا جنون!

إذن قد صحّ تخمين إبراهيم!

قال وقتها أنّ الجمل رُبّما طار مع الإعصار، حمله في طريقه. جملٌ بهذا الوزن وبتلك القوة يحملهُ الإعصار بهذه السّهولة ويُلقيه ها هُنا على بُعد أميال، كيف إذن لا يقدِرُ هذا الإعصار على قتل مُختار؟!

بعد تلك الحادثة ولأول مرّة أشعُرُ في داخلي بأنّني أبرّئُ إبراهيم المُرشد من دم مُختار، أقول في نفسي رُبّما أنّه فعلاً بريء من هذا الدّم ولكنّي مع هذا لم أصرّح لأحد. برغم الاستنتاجات ما زلت مُصرّاً على رأيي الأول من أنّ إبراهيم على الأقل يعلم شيئاً ما بشأن موت مُختار ما زال يُخفيه عنّا، بل أنا مُتيقّنٌ من ذلك، كيف إذن نجا هو بنفسه من الإعصار في حين مات مُختار وطار الجمل الآخر؟!

ما زال يرفضُ أن يبوح بشيء غير الذي قاله في أوّل مرّة. روايتهُ تلك التي صرّح بها بعد الحادثة ما زلتُ لا أصدّقُها، يُصرُّ هو عليها بينما أنكِرُها في نفسي، فيها شيء ما يجعلني لا أستسيغُها. يقول أنّه وقت أن ضربنا الإعصار وركض كُلّ منّا في اتّجاه كان هو ومُختار يبحثان في نفس الوقت عن الجمل الآخر حتى يحتميان خلفه. كانا يبحثان عن جملٍ واحد في حين أنّ الإعصار كان يزحف نحونا بسرعة جنونيّة وحدث كُلّ شيء بعدها في ثوانٍ، كيف إذن استطاع أن ينجو بنفسه في ثوانٍ من جحيم الإعصار بينما مات مُختار وحده واختفى الجمل الآخر، شيء ما يبعث على الجنون!

اقترحتُ عليهم أن نبيت اللّيلة هذه هُنا، كُنت قد شعرتُ بألمٍ بسيط ينخزُ في مُؤخرة رأسي وغثيان أصابني فجأةً ودون سبب فعرضتُ عليهم أن

نستريح الليلة هُنا ونُكمل سيرنا مع شروق شمس اليوم الجديد فوافقوا جميعُهُم، غريبٌ فعلاً أن أحداً مِنهُم لم يعترض هذه المرّة خصوصاً مالك هذا الذي ظللنا نسمع زمجرته مراراً كل مرّة كان إبراهيم المُرشد يُعلن فيها حين التّوقف، هو الآخر لم يعترض وفضّل الصمت.

كُنّا قد قطعنا مسافة طويلة من آخر توقّفٍ لنا لذا كُنّا مُجهدين جدّاً. اقترحتُ عليهم أن نرتاح فوافقوا على الفور، بدوا لي أنّهم قد أنهكوا من كثرة المسير وطول الطّريق. الطّريق أمامنا طويلة جداً ولا تنتهي، متى إذن تنتهي الصّحراء؟!..

حتى الآن لم تُصادف تلك البُحيرة التي حدّثنا عنها إبراهيم. مُنذ خمسة أيّام، قال أنّها ستظهر بعد تلّة الرمل الرّابعة في مُتتالية من سبعة تلال، عبرنا الرابعة ثُمّ الخامسة حتى وصلنا إلى السّادسة ولم تظهر، لا أثر لها على الطّريق. هذا أقلقه جداً وجعلهُ يُعيد النّظر في أمر الطّريق، دقّق في الخريطة أكثر من مرّة وفي كُلّ مرّة كان يؤكد مكانها بعد التّلة الرابعة، نحن أيضاً قلقنا، إنْ كان إبراهيم قد يُخطئ ماذا نفعلُ نحنُ إذن في هذا الجحيم؟!.. كُنّا عندما نسألُه عن أمر البُحيرة يظلّ ينظر في الخريطة ثم يحلف أنّ مكانها كان هُنا خلف تلّة الرّمل الرابعة ولكنّه لا يعرف الآن أين ذهبت؟!.. يقول أنّ هذه أوّل مرّة يُصادِفُ تغييراً جذرياً بهذا الحجم وبهذه الغرابة على الطّريق.. قال أنّه في آخر مرّة مرّ من هُنا وكان ذلك قبل ثلاثة أعوامٍ تقريباً كانت البُحيرة في مكانها بعد التّلة الرابعة.

تكون الكارثة إن أصاب إبراهيم المُرشد ما أصاب ياسين من خلل في معايير الإدراك، هذا يعني أنّنا حتماً قد انتهينا.

نزلنا إلى وادي سوف بالقرب من التّلة السادسة، أو إن صحّ التعبير بين التلة السّادسة والسّابعة، المكان في الأسفل مُكفهر ومكتوم في ذات الوقت برغم أنّه فسيحٌ جدّاً. تقول قبائل الصحراء القديمة أنه في وقت الرومان كان هذا الوادي نهراً كبيراً ولكن أحداً ما ألقى عليه تعويذة فاختفى، هكذا يحكي لنا إبراهيم ونُصدّقهُ، أو لا نملِكُ إلاّ أن نصدّقهُ. أنا

مثلاً لم أر من قبل هذا الوادي ولا حتى سمعتُ عنه ولا عن هؤلاء الرّومان الذين يحكي عنهم برغم أني على يقين تام من أنّ شخصاً مثل إبراهيم هذا يستحيل أن يعرف شيئاً عن الرومان إلا من خلال حكاية أسطوريّة كتلك، رُبّما هي في الأساس أسطورة ابتدعوها وصدّقها، ولكنّي أيضاً لا أملِكُ إلاّ أن أصدّقَهُ كما يـصدّق هو نفسَهُ بشدّة.

ياسين نام بمجرّد أن هبطنا إلى الوادي، كان مُنهكاً جدّاً ففعا. اخترنا مكاناً معزولاً بعض الشيء في الوادي وخيّمنا فيه. عندما نزلنا وللوهلة الأولى شعرتُ بأنّني في مكان غريب، مكانٍ غريب حتى عن الصّحراء نفسها، كأنّه مُحيطٍ مُتجمّد أو متصلب في وسط الرّمال ويتحرّك سطحُهُ بصورة غريبة، هكذا شعرتُ، ثُمّ استقرّينا في نقطةٍ معزولة في بطن الوادي تجنُّباً لهجوم الذئاب البريّة. صوتها أصبح يُطاردُ مسامعنا من مُدّة، يتزايد تدريجيّاً من حولنا وبشكل يبعث على الريبة، يقول إبراهيم أنّ أفضل طريقة لتجنُّب اقتراب الذّئاب هي أن نُشعل ناراً ونحتمي في وهَجها. يقول أنّ الذّئاب تخشى النّيران ولا تقترب منها مهما حدث.

اعترضتُ في البداية على فكرتِهِ تلك، رأيتُها فكرة سخيفة، كيف نُشعل ناراً في قلب هذه النّيران المُحيطة بنا أصلاً، الجوّ هنا خانقٌ بحدّ ذاته ولا يحتمل أن نختنقَ أكثر؟!

بعد ذلك رضختُ، هو في النّهاية مُرشد الطّريق وكلامه في الغالب يكون الأنسب كما أنّ أحداً من الآخرين لم يعترض، رضخوا هُم أيضاً لتحذيراته المُستمرة وقلقه من هجوم الذئاب ليلاً. يُردّدُ أنه غير مسؤولٍ في حال خالفنا رأيهُ وحدث شيء ما على غير المُتوقّع، يستمر في القول أنّ وهج النّيران وحدها من يطرُدُ الذئاب وحرارتُها أهونُ بألف مرّة من هجوم قطيع منهم في جوف اللّيل خاصةً أنّ صوتُها أصبح يُشير إلى اقتراب مكانها في الوادي، هو في النّهاية صاحب القرار.

تحوّلقنا حول حلقة من النّيران صنعها إبراهيم، الجو شديد الرّطوبة وخانق جداً ولكنّنا مع ذلك احتمينا في ضوء النّيران يُطاردنا صياح الذّئاب

المُستمر.

حضَرَني في هذا الموقف صورة الجمل الذي رأيناه بالأمس نافِقاً على الطَريق، قلتُ في نفسي مرّة أخرى وقد كدت أجنّ من فرط تداخل الافتراضات في رأسي كيف أنّ إعصاراً حتى وإن كان قويّاً إلى هذا الحدّ أن يقدر على أن يحمل جملاً وزنُهُ أطناناً هكذا كالرّيشة ويُلقه على بُعد نصف ميل من مكان الحادث، لا بُدّ أن هُناك خطأ ما وقع فيه إبراهيم بينما كان يُميّز آثار الجمل الميت، أو قد تكون هيئته الرّثة هي من خانته فأفقدته قدرتهُ على التمييز ولم يُقدّر الموقف بالشكل السليم. في حين أنّي تراجعت في كُلّ مرّة تذكّرتفيها كيف أن كُلّ مُتقفّي آثار بدويّ هنا في الصحراء يعرف الآثار الخاصة بجماله ويستطيع بعضهم أن يتذكر كُلّ جملٍ رآوه تقريبا، يمكنهم حتى أن يُحدّدوا بنظرة من عُمق أثر الخف إن كان هذا الجمل يحمِلُ ثقلاً أولا، وإن كان البعير حاملاً أم لا.. يتمكّنون أيضاً من معرفة القبيلة التي يخصها الجمل؛ لأنّ قبائل مُختلفة تملك سلالات مُختلفة من الجمال ويمكن تمييزها كلها من آثارها، ومن النظر إلى روثها يستطيعون غالباً معرفة المكان الذي كان الجمل يرعى فيه ويمكنهم التأكيد متى سُقي آخر مرّة ومن معرفتهم بالبلاد يمكنهم على الأرجح معرفة المكان أيضاً.

أقول حينها في نفسي كيف إذن يُخطئ إبراهيم في تقدير الموقف؟!

أخرجني عن شرودي فجأةً صوت مالك، كان يُجيب عن سؤال إبراهيم، كأنّ هذا الأخير سأله عن مكان الذّهب، استشفّيتُ ذلك من إجابته فسمعتُهُ يقول أنّ حجم الذهب هُناك في مثل هذه الأماكن يكون وفيراً جداً وأنّه يُمكن الحصول عليه ببساطة بمُجرّد أن تكشط سطح الأرض الطينية أوالرملية التي يكون فيها، قال أنّه عندما يكون المنجم غنياً بالموارد يُحفر إلى عُمق بضعة أقدام فقط وعند فصل الذهب عن التراب يحصلون على القطع الأكبر حجماً فقط لأن الكسرات الأصغر تُجرف مع الماء وهذا مع رآه قوم تلك القبيلة الذين مرّوا مِن هُناك وحكوا عنه وحكى لنا هو عنهم.

سأله ياسين مُتعجباً حينها وكان قد أفاق من غفوته بعد أن لفحته حرارة النيران المُلتهبة من حولنا، كيف أنّه على علمٍ بكُلّ هذه المعلومات عن الذّهب وعن طبيعة أماكن تواجده دون أن يزور مكاناً كهذا من قبل.

صمت مالك قليلاً ثُمّ أجاب بعدها باقتضاب إجابةً بدت شبه واثقة، قال أنّه قد درس الموضوع جيّداً قبل أن نرتحل معه وقبل حتى أن يأخذ هو خُطوةً واحدة فيه. فضّلت الصمت برغم أنّي كُنت مُستعجباً أمرهُ وكان سؤال واحد يُلِحّ عليّ منذ أيام بشأن هذا الموضوع الذي كُنت أبحثُ له عن إجابة؛ لماذا لم يختر مالك أن يرتحل وحده ليبحث عن هذا الكنز في الوادي إن كان هو بالأساس مُتقيّناً من وجوده هُناك، ولماذا جلبنا معه وقَبِلَ أن تُقسّم الغنيمة على خمسة وكان يُمكن أن تكون له وحده؟!

سؤالٌ خُلق مع أوّل مرّة طلب مني مالك فيها أن أشاركهُ الطّريق، ولكنّه تفاقم وتعاظم في الفترة الأخيرة وصار يلِحّ عليّ أكثر خصوصاً بعد موت مُختار المُفاجئ، لا أدري ما السّبب؟!

سألتُ مالك حينها، قُلت له:

-ماذا ستفعل بنصيبك من الذّهب إذا وجدناه؟

سكت ولم ينطق، كأنّ السؤال قد باغته فبدا لي أنّ إجابتهُ لم تكُن حاضرةً في ذهنه، أو أنّه حاول اختلاق واحدةً في التّو وفشل، قال بعد عدّة محاولات وبعد أن حاول مُداراة ارتباكه أكثر من مرّة:

-لا أدري، لم أفكّر بعد في الأمر.

كيف لا يدري وهو صاحب الفكرة من الأساس، إجابتهُ غير منطقيّة بالمرّة. أيكون في رأسه شيءٌ ما يجول ويُخطّط له؟!

مُنذ مُدّة بدأتُ أشعُرُ نحوه بالارتياح، كذلك إبراهيم، مع تحفّظي الكامل طبعاً بما يدور في داخلي تجاه هذا الأخير من حادثة موت مُختار الغريبة.

هذه المرّة سألت إبراهيم، كرّرت له نفس السؤال، إجابتهُ على عكس

مالك كانت حاضرةً، أو أنه فكّر فيها وقت أن سألتُ مالك، ولكنّها بدت لي حاضرة أكثر عندما قال:

-سأبني لي بيتاً في قريتنا بعد أن أبيع جُزءاً من نصيبي في الذهب وأحتفِظ بالباقي، وسوف أتزوّج من غجريّة.

مازحهُ ياسين قائلاً:

-وتصطحِبُها معك في رحلاتك الصّحراويّة.

ضحكنا، إلا مالك حينها لم يُشاركنا الضّحك.

ظلّ وجهه للحظات قناعاً جامداً لا يكشفُ أيّ انفعال حتى انفك فجأة وابتسم معنا في النّهاية. كُنت ألحظُهُ بينما نضحك فأجده يرمقُني بنظراتٍ مُريبة تبعث على الشّك أربكتني وأنبتت في داخلي قلقاً جديداً تجاههُ بعدما شارفت حصيلةُ القلق الأولى أن تنتهي، حتى عندما بدأت ألينُ في وجهِهِ.

****

مالك

تُربِكُني أسئلة الشيخ يونس الفُجائيّة، يُباغِتُني في كُلّ مرّة بسؤال لا أضع له إجابة، كأنّه يختبِرُني ليعرف إن كان الذي يدور في داخلي هو نفسُهُ الذي يدور في داخله؟

كيف إذن حين يعرف مقصدي من هذه الرّحلة أو ما أسعى إليه في الأساس؟!.. رُبّما قتلني حينها ثُمّ قتل نفسهُ..

كُل سكان الصحراء من الطوارق إلى السكان الأصليين هم بالطبيعة متقفو آثار، لكن البدو يتفوقون في هذا. أتوسّمُ ذلك في إبراهيم حقاً، إلا أنّه في الفترة الأخيرة أصبح مُشوّشاً، أمرُ البُحيرة التي حدثنا عنها ولم نجدها حتى الآن يُربِكُه ويُربِكُنا. الماء كاد أن ينفذ منّا قبل يومين لولا أنّنا وجدنا بالصدفة بعضاً منه بجوار الجمل النّافق على الطّريق، جملُنا الذّي

مات في الإعصار. وجدنا ما يكفينا لخمسة أيّام إضافية، لا أدري ماذا سنفعل بعدها، رُبّما حينها تُنقِذُنا نبوءة إبراهيم هذه فنجد البُحيرة التي يحدّثنا عنها طوال الوقت، طالما أنّنا لم نجدها حتى الآن سأظلّ أعتبرها مُجرّد نبوءة تُعيئنا في أمر الطّريق وتُعطينا الأمل، مُجرّد الأمل في هذه اللحظة قادرٌ على إنقاذنا من براثن الهلاك.

النّيران من حولنا تزداد توهُّجاً وألسنة اللّهب من فوقها تتصاعد شرراً نحو السّماء في سباقٍ غريب مع الزّمن لتشكّل في النّهاية كُتلا من دُخان قاتم (يخترق) الأفق. ينعكس وهجُ النّيران في عيني فأرى الصّورة تهتز أمامي كأنّي أفقِدُ بصري تدريجيّاً.

أسألُ نفسي:

-مُنذ متى كانت النّيران بهذه القوة ووهجُها كان بهذا التأثير المُضيء فتُصبح قادرةٌ على أن تُشوّش ذهني، أقصد هل من قبل أن نُصبح ها هنا في الصّحراء لهذا الوقت الطويل كان لوهجها نفس التأثير أم أنّني أنا الذي بدأت أفقد تركيزي، ظنتُها طبيعية في النّهاية وهذا تأثيرُها الفعلي إلا أنّني من بدأت أفقد تركيزي وبدأت موازيني تختلّ فأصبحتُ لا أراها بوضوح.

أتساءل أيضاً:

-كيف سنبيتُ الليلة هذه في هذا الجو الحارق بينما تزيده النّيران من حولنا اشتعالاً؟!..

ما يُثير حفيظتي أنّه وقت أن يكون الجو حاراً هكذا في الصّحراء يلجأ المُسافرون إلى أن يدفنوا أنفسهم في الرّمال هرباً من قيظ الحرارة لا لجوءاً إليها كما نفعلُ نحن؛ نصنعُ القُوّهة من الدّخان بأيدينا ونُلقي بأنفسنا في داخلها لنختنق.

مازال إبراهيم يُصر على فكرته، يقول سنصنع حلقةً من النّيران حولنا ونبيت في وسطها حتى الصّباح، حتى إذا تسلّلت قطعان الذئاب ليلاً

وهاجمتنا بغتة لا تستطيع الاقتراب عند حدّ مُعيّن.

سألتهُ: ماذا إذا خمُدت النّيران فجأةً ونحنُ نيام وانطفأت وهجم بعدها علينا القطيع، يقول حتى لو انطفأت النيران بالكامل سيظلّ رمدُها المُشتعل مصدر قلقٍ للذئاب فتخاف أن تقترب..

أفكّر مع نفسي ثُم أنقِلَ له ما يدور في خُلدي قائلاً: وماذا إذا خمد رمادُها أيضاً..

يُجيبُني: لن يخمُد ما دام الجو هكذا جافاً.. لن ينطفئ رماد النّيران حتى نصحو عند الفجر.

رُبّما هو مُحقٌّ فيما يقوله ولكنّي ما زلتُ أخشى حدوث شيء ما لا أعلمُهُ..

حدّدنا من حولنا ثمانية نُقاطٍ رئيسية في شكل دائرة قُطرها يفوق العشرة أمتار ثُمّ أوصلنا بين النُّقاط الثمانية بممرات مُجوّفة من الرمال ملأناها من الداخل بالوقود ومن ثُمّ أشعلنا النّقاط الثمانية وسيّرنا النيران في الممرات لتتشكل بعدها الحلقة. نمنا في وسطها وشكّلنا بأجسادنا حلقة أصغر في الدّاخل. مددت أنا قدمي في مقابل قدم الشيخ يونس في حين أنّ رأسي كانت إلى رأس ياسين، إبراهيم وضع رأسهُ بجوار رأس الشيخ يونس، بينما الجمل الوحيد ظلّ راقداً هكذا إلى جوارنا خارج الحلقة يتطلّع في الفراغ.

هذا أراحني بعض الشيء وقُلتُ في نفسي؛ على الأقل إذا هجمت الذئاب علينا ليلاً سيعلمُ الجمل بذلك قبلنا.

صحونا على مشهد مُروّع، كان إبراهيم المُرشد يصرُخ. صُراخُهُ كان فظيعاً فأجفلنا وصحونا معاً في آنٍ واحد وتطلّعنا نحوه في ذات الوقت. كان يشتعل ويركُضُ صارخاً في كُلّ اتّجاه، النّيران مُمسكةً جسده بصورةٍ غريبة. متى حدث هذا كُلّه، وكيف؟!

قُلت؛ لا وقت الآن للأسئلة..

ركضتُ مُسرعاً نحو الجمل، سحبتُ من فوقه غطاء الجلوس الذي يمتطيه الرّاكب ثُمّ رُحت أمزقه قطعاً صغيرة، استخرجت منه لَفافة من القماش بما يكفي لتلفيح شخص واحد وفردتُها ثُمّ رُحتُ أطفِئُ بها إبراهيم المُشتعل، الشيخ يونس كان يجلِبُ ماءاً ويحاول إطفاءه هو الآخر، النّيران المُشتعلة من حولنا بدت أنّها قد خمدت أو كأنّ مُعظمُها قد هرب وتجمّع في جسد إبراهيم في تلك اللّحظة، مُعظم الشُعلات كان وهجُها قد خفُت إلاّ اثنتين كانتا مازال فيهما الرّمق. ياسين كان يتطلّع إلى المشهد في ذهول ولا يفعلُ شيئاً سوى أنّه يبتعد عن مكان النّيران وعن مكان إبراهيم، السيناريو هذا تكرّر من قبل في حادثة موت مُختار ولكن بظروفٍ مُختلفة، الغريب في الأمر أنّ كُلّ الذي يحدث بعد ذلك يحدث في ثوانٍ معدودة وتكون عواقبه وخيمة!

حاولنا إطفاء إبراهيم بشكل دقيق وسريع في ذات الوقت، وكان قد هوى أمامنا على الأرض مُستسلماً للنّيران المُشتعلة في جسده. لففتُ القُماشة حول جسده بطريقة خنقت كُلّ بقعة برزت منها النار في جسده، بدا أنّها قد وصلت إلى أماكن كثيرة فيه فأحدثت حروقاً بالجملة في جسده. كُلّ هذا حدث في ثوانٍ قليلة كانت حركتُهُ فيها قد خمُدت حتى صُراخه الذي كان قبل لحظات صُراخاً هستيرياً أصبح الآن مُجرّد حشرجات مكتومة. حين قلبته على وجهه بينما أطفئه رأيتُ مشهداً أجفلني، النّيران كانت قد التهمت جُزءاً كبيراً من جسده ورأسه في حين أنّ وجهه كان قد احترق بالكامل في مشهد مُقزّز وغريب. رموش عينيه السوداء وحاجبيه اختلطا بجلده المُتفحّم فأصبحتُ لا أتميّز ملامح وجهه، كان منظرُهُ مُرعباً إلى حد كبير بعد أن صار جلده أسوداً كالفحم. هذا المشهد أخافني وربما للمرة الأولى من زمن.

بمجرد أن نجحنا من إطفائه وفي لحظةٍ مشحونة اقترب منّي الشيخ يونس يسألُني عمّا حدث بينما بدا مذهولاً جداً. إبراهيم كان يئنُّ بأنينٍ مُتقطّعٍ حين أخبرتُهُ أنّي مثلي مثلَهُ لا علم لي بشيء من الذي حدث إلا الذي أراه ويراهُ هو الآخر. ياسين جلس ينوح بعيداً كما فعل في آخر مرّة

عندما فقدنا مُختار. في هذه اللّحظة تذكّرت حادثة موت مُختار الغريبة ولكنّي لم أتذكّر معها شيئاً آخر غير أنّ مُختار كان قد مات بمُجرّد أن وصلنا إليه بينما إبراهيم هنا ما زال يتنفّس أمامنا ويُفرز حشرجات تُخبرنا بأنّه مازال على قيد الحياة وأنّ علينا أن نُسرع في فعل شيء ما قبل أن يفقد نفسه الأخير.

شعرتُ حينها بأنّي مسلوب الإرادة وألا حيلة لدي في فعل شيء، لم أكنْ أدري ما الذّي عليّ أن أقوم به في تلك الأثناء. ما فلحت فيه فقط أنّي فزعتُ نحو ياسين وصرختُ في وجهه آمراً إيّاه أن يكُفّ عن النّواح وبدلاً من ذلك أن يهب ليُساعدنا في فعل أيّ شيء نُنقذ به إبراهيم المُنكمش أمامنا على الرمال يصرُخ. خاف بمجرد أن صرختُ في وجهه فانتفض واقفاً في مكانه في حين كفّ عن البكاء ولكنّه مع ذلك لم يجسُر أن يقترب من مكان الحادث خطوةً واحدة وظلّ وجهُهُ محمرّاً من أثر الصّدمة وجسدُهُ يختلج.

سألتُ الشيخ يونس عمّا يجب أن نفعلهُ تلك الأثناء حيال إبراهيم، وجدتُهُ هو الآخر فاقداً للواقع، كأنّه غيرُ مصدّق لما يحدثُ لنا بينما كان آخر إناء من الماء في يده مُفرغاً بعد أن ألقاهُ كاملاً فوق جسد إبراهيم. ولكنّه فجأةً وبعد أن ظلّ هكذا واجماً لثوانٍ صرخ باسم الخريطة التي كان يحملها إبراهيم معه ويُرشدُنا بها في الطّريق.

قالوا قديماً إذا أصابك مكروهٌ في الصحراء وأنت مع جمع فأوّل شيء عليك فعله هو أن تُفكّر في حياتك أو ما سيبقيك حيّاً لأطول فترةٍ مُمكنة ومن ثمّ بعد ذلك فكّر في الآخرين ممّن معك، أن يبقى واحد حيّ في حد ذاته أفضل من أن يموت الجميع فجأةً، هذا ما كان يُفكّر فيه الشيخ يونس حينها وقد كانت هذه أوّل قاعدة من بين القواعد العشر التي تلاها علينا بمُجرّد أن وطئت أقدامُنا أرض الصحراء، قال باختصار أنّنا لا يجب أن ننظُر إلى الخلف مهما كان الذي سيحدث أمامنا على الطّريق وأنّ علينا أن نُتابع سيرنا مهما كلّف الأمر من تضحيات، مع ذلك لم تخطُر نصيحتُهُ تلك على بالي لحظتها كما خطرت من قبل في حادثة موت مُختار، رُبّما لأن

مُختار حينها لم يكُن مُقرّباً مني مثل ما كان إبراهيم ففشلت في أن أضبط أعصابي.

المُهم أني ركضتُ مُسرعاً باتّجاه إبراهيم بمجرد أن سمعتُ نداء الشيخ يونس، رُحت أبحثُ كالمجنون في جيوبه وبين جنباته عن مكان الخريطة بينما كان جسدُ هذا الأخير مازال يرتجف وأنينه ينبعث خافتاً. وجدتُها في النهاية في أحد جيوبه الخلفيّة ولكنّ النيران كانت قد وصلت إليها قبلي فالتهمتها بالكامل.

هُنا فقط شعُرتُ بخيبة الأمل تتملّكني وبالإحباط يجتاحُني للمرة الأولى مُنذ أن غادرنا، كأنّي كُنت أبالغ في ردّة فعلي كُلّ هذا الوقت. أحسستُ بأنّ الحياة ضاقت في عيني بينما يتّسع السواد من حولي، شعُرتُ بأنّنا نحُطّ بأقدامنا على ناصية الكارثة الكُبرى، المُصيبة المجهولة التي تنتظِرُنا والتي هي أعظم من أيّ مُصيبة قد واجهناها من قبل على الطّريق. معنى أن تفقد مُرشد الرحلة ومعه دليلَ الطريق دون أن تضع هذا في حُسبانك مُسبقاً أشبه حقاً بالموت البطيء الذي يُباغتك على حين غفلة، فيأمرُك بأن تحزِم ما تبقى من حياتك في وقتٍ مُحدّد لا يتّسع لأن تشدّ فيه كُلّ ثغرةٍ تركتها مفتوحة على أمل أن تُغلقها يوماً ما..

أقول: بيني وبين زعيم الطّوارق <مأمون> ثأر قديم وثغرة واسعة لا بُدّ أن أسُدّها قبل أن أغادر..

يُجيبُ في رأسي: على الأقل أمهِلك، أعطيك موتاً بطيئاً سيُمكّنك من زيارة حياتك مرّة أخيرة لوداع أخير.

أقول: لا أريدُه، أريد فقط أن أصل لأزور حياة <مأمون> لمرّة وحيدة ثُمّ بعدها أخطُف روحي دون أن تترُك لي أيّ مجال للنّقاش.

يهُزّ رأسهُ ويُفكّر.. كأنّه بدأ يقتنع.

يونس

أخرجنا وشاحاً كبيراً من القُماش عالجنا سطحه بأن أضفنا له بعض القُطن ولففناه حول خصر الجمل بإحكام ثُمّ جعلنا منه حاملاً يتدلّل كالأرجوحة من بطن الجمل ورفعنا إبراهيم فوقه فأصبح الجمل يحمِلهُ أسفل بطنه بدلاً من أن يحمِلهُ فوق ظهره، هكذا عكسنا اتّجاه ركوبه فضمنّا أنّه لن يقع سهواً من فوق الجمل بينما نمشي، ثُمّ رُحنا نسير بجوارِه ونتفقّدُه كُلّ بضع دقائق على الطّريق، كان يتعذّب، صوتُ أنينه المكتوم كان يكويني.. راح يفقد وعيه ثُم يستعيده من جديد من شدّة الألم. في بعض الأحيان كان يسكت لفترة طويلة فنعرف حينها أنّه قد فقد وعيه ثُمّ يصحو بعدها بساعات ليتجدّد ألمه وأنينه. هذه كانت اللّحظة الوحيدة التي تمنّيتُ فيها لأحد منّا أن يموت حقّاً، موتُهُ كان أهون عليه من هذا العذاب المُستمرّ، موتُهُ سيريحُنا من تأنيب الضمير الذي يُكبّلُنا، وسيزيل عن عاتقنا حملاً ثقيلاً كلّما مرّ الوقت وظل هو هكذا موجوعاً بلا أمل.

نفد منّا الماء ولم يفد حتى باستطاعتنا أن نفدّه بقطرة ماءٍ تروي عطشه، موتُهُ في هذه اللّحظة بات يُشكّل راحةً للجميع.

إبراهيم ارتأى أن فكرة النّيران هذه قد تفلحُ في إنقاذنا من هجوم قِطعان الذئاب اللّيلية، ولكنّه لم يعي أنّ تسلّل النيران إلى أجسادنا كان أقرب بكثيرٍ من تسلّل الذئاب نفسها، هذا الاحتمال لم يخطُر على باله ولا على بالِ أيٍّ منّا، وبدلاً من أن تحمينا النّيران من تسلّل الذئاب التهمت هي أجسادنا، حرّكتها الرياح ليلاً فهبت واشتعلت في جسد إبراهيم وأحرقته. هذا كان أقربُ احتمالٍ توصّلنا إليه بعد نقاشٍ طويلٍ دامعن أمر الحادثة لنتبيّن سببها، وإلاّ فكيف وصلت النّيران إلى جسد إبراهيم بتلك السهولة، لحُسن حظّنا نحن الثلاثة أنّنا كُنّا نرقُد في اتّجاه الريح وإلا فكانت النّيران قد التهمت أجسادنا نحن الآخرين.

ياسين بعد تلك الحداثة صار مهووساً جداً وبصورة غير طبيعية، صار يرتعد من أقلّ كلمةٍ تُذكّرهُ بحادثتي موت مُختار أواحتراق ابراهيم، أي

شئٍ يُذكّره بالموت كان يفر منه، هكذا ظلّ يستمر في الهروب من تقبُّل حقيقة الموت، كأنّ الموت لن يُصيبهُ يوماً. كُنّا كُلّما دار بيننا حديثاً وارتأى أنّ نهايته ستصُبّ في ما يتعلقّ بهاتين الحادثتين أو أيٍّ منها كان ينسحب ويبتعد، بتنا نعيش معه كوابيس حقيقية مُنذ تلك الحادثة، يهُبّ ليلاً وفي غالب الأحيان فزعاً من كابوس يُضجر منامه، يقول أنّ روح مُختار تحوم حولنا بينما نكون نياماً كُلّ ليلة، قال أنّه ظلّ يزوره في الآونة الأخيرة كثيراً، قال أنه قد زاره أكثر من مرّة في ليلة واحدة قبل الحادثة وأنّه في المرّة الأخيرة حذّره من أنّ سواءً ما سيضرِبُ مسيرنا، سيُصيب أحداً منّا على حين غفلة، لم يُصدّقوه وراحوا ينعتوه بالمجنون، أنا كُنت أسايرُهُ طيلة الوقت مع يقيني بأنّه قد فقد عقله مع موت مُختار. أسمعهُ في اللّيل يُناجي نفسه فيتمزّق قلبي حسرة، حتى حدث ما قد حدث وصدقت رؤياه، وصُعِقنا.

تركنا وادي سوف وأكملنا سيرنا في اتّجاه الغرب دون وُجهة أو دليل، لا ندري إلى أين المسير، فقدنا دليل الطّريق، أصبح راقداً معنا بين الموت والحياة أو بين الموت وشبح الحياة، حتى ولو حدثت المُعجزة وأفاق إبراهيم من غيبوبته فرُبّما لن يصمُد طويلاً هُنا مع هذا الجوّ الخانق ومع قحط المياه الشديد الذي يضربنا بالإضافة إلى نزيف حُروقه المُلتهبة، وإن كُنت أشُكُّ أصلا في أنّه قد يعيش ليومين إضافيّين إذا استمرّ الوضع على هذه الحال.

قطعنا مسافة طويلة بعد تلك الحادثة سيراً على أقدامنا، كانت أطول مسافةٍ نقطعُها سيراً على الأقدام مُنذ أن ارتحلنا، سِرنا ما يُقارب العشر ساعات متواصلة دون توقّف بعد أن نفد منّا الماء والطّعام وكان لزاماً علينا أن نقطع أطول قدر مُمكن من الطّريق علّنا نتعرقل في بئر أو مصدر آخر للماء قبل أن يتملّكنا الإنهاك ويستبدّ بنا العطش، رُحنا نسير كالمجانين نقطعُ المسافات تلو المسافات ونتطلّعُ بوجومٍ في كُلّ اتّجاه بحثاً عن أيّ دليلٍ يُقرّبنا من مصدر للماء. لم نكُن نعلم أين نحن أو كم تبقى أمامنا من الوقت حتّى نصل ولم يكُن يشغل بالنا حينها أنّنا نجهل أمر الطّريق،

الشيء الوحيد الذي ظلّ هاجساً ينخرُ في عقولنا بلا توقف فكرة أنّنا قد لا نجد ماءاً أبداً ونموت عطشاً.

هكذا رُحنا نسير في الطريق بمعيّة الجبال واتّجاه الكُثبان الرملية، ساعدنا في ذلك ياسين بعض الشيء بعد أن كان قد كوّن حصيلةً لا بأس بها في نِقاشه الطويل مع إبراهيم طوال الطريق، كُنّا نعتمد عليه دون أن نُناقِشهُ في قوله مع يقيننا أنّه فاقدٌ عقله. كان هو دليلَنا الآخر بعد إبراهيم. كان يقول ونُنفّذ ما يراه حتى وصلنا إلى مُفترق طريق عجيبة، تكوّنت أمامنا فجأةً بينما كُنّا نمُر من خلف تلةٍ رملية لنعبر كثيباً آخر. كانت هضبة عالية في مُنتصف الطريق على يمينها طريق وعلى يسارها طريق أخرى ويحُدُهُما من الجانبين جبلين وعِرنين، هُنا توقّف ياسين عن الكلام. لم يقترح لنا أيّ اتّجاهٍ نسلُكه، بدا غريبا أن نجد هكذا مُفترق طريق في قلب الصّحراء، لو كان إبراهيم مُعافىً لربما عرف ما يكون هذا المُفترق ولدلّنا على الاتجاه الصحيح منه. حاولنا أن نستشيرهُ مرّات عديدة ولكنّنا فشلنا، في بعض الأوقات التي يكون فيها غير فاقد للوعي يظلّ يهذي، لم يقُل جُملةً واحدة مُفيدة مُنذ تلك الحادثة، دموعه كانت تسيل على وجنتيه لا إرادياً فنعرف أنّه يتقطّعُ ألماً، بدا لنا أنّهُ في آخر أيامه، فشلنا في أن نُقدّم له شيئاً غير أنّ مالك حاول تضميد جروحه وحروقه الكبيرة وبطُرُقٍ عديدة ولكنّها ظلّت تتفاقم بشكل غريب بمرور الوقت.

في النهاية وبعد مشورةٍ، اخترنا أن نسلك الطريق التي تشكّلت على اليسار لا لشيء غير أنّنا قد لاحظنا بقايا آثارٍ لجمالٍ وبعير مطبوعة على الرّمال هُناك. استرشدنا منها أنّ هذه الطريق رُبّما قد سلكها من قبلنا أناس آخرون وهذا دفعنا على اختيارها دون الأخرى. العجيب أنّ الطريق التي سلكناها كانت مُتعرّجة وغير مُمهّدة ومائلة قليلاً على عكس ما كُنّا نسلُكه من طُرق مُستوية طيلة سيرنا في بحر الرمال غير أنّ في بطنها راحت تظهرُ آجام وأعشاب تُنذر بالحياة. تلك الخصائص الفريدة دفعتنا إلى الاعتقاد بأنّ هذه الطريق تختلف عن غيرها وأنّها غير شائعةٍ في الصحراء كثيراً.

راح الطريق يدفعُنا أمامهُ دفعاً بينما ظلّت نُقطة الأمل الوحيدة في داخلنا تتسع بينما نسير لترشدنا بأنّ شيئاً ما سيظر في نهاية المطاف على الطريق ليبعث فينا الحياة من جديد، في حين كانت الأعشاب والآجام تكثُرُ من حولنا ولأوّل مرّة مُنذ وقتٍ طويل جداً ورأينا اللّون الأخضر يعود ليظهر من جديد جليّاً أمام أعيُننا، هذا أنذر بالمُعجزة ودفَق فينا أملاً جديداً.

بمُجرّد أن وصلنا إلى نهاية المُفترق لمحنا بريقاً وهّاجاً يرتدّ من فوق الرمال نحو السّماء على مسافة بعيدة منّا في منطقةٍ أقل هبوطاً، صرخ مالك فجأة بأنّ هذه بُحيرة. في البداية لم نُصدّق كلامه بينما زُحنا نقترب منها لنتبيّن ماهيتها، كُنّا مُتلهّفين جداً كأنّما نُصارع الموت زحفاً من أجل الحياة. ركض الجمل فجأةً ودون أن يمسّهُ أحد تجاه هذا الوهج الغريب المُرتد فعرفنا حينها أنّها ربما تكون بُحيرة بالفعل، عندما اقتربنا منها أكثر اكتشفنا أنّها بُحيرة تُشبه تلك التي ظلّ إبراهيم يُحدّثُنا عنها طويلاً، رُبّما تكون في الأساس هي نفسها. لو يعي إبراهيم ما نراه الآن أمام أعيُننا أوأنّنا قد وجدنا تلك البُحيرة التي ظلّ يُحدّثنا عنها كثيراً حتى جعلته في النهاية يشكّ في نفسه لرُبّما أفاق من غيبوبتِهِ وشفي في الحال. منظرُ الماء من بعيد يجذبُنا وبصورة غريبة، ياسين ومالك راحا يُهرولان بينما شبح ابتسامة مطمورة يظهر على وجنتيهما كُلّ حين ويختفي، تدفعُهُم أقدامهم لا إرادياً نحو الماء وكأنّ كُلّ واحدٍ منهم ينتظر الآخر ينفلت ليندفع هو الآخر راكضاً دون أن يوقِفهُ أحد.

هكذا ظللنا نقترب من البُحيرة عندما لمحنا من بعيد سطحها وقد كان آنساً جداً، لا اندفاعات فيه ولا تكوّرات في حركة المياه، كما لمحنا رواسب بيضاء تتراكمُ على حواف شاطِئِها، هذا أخمد لهيب ثورتِنا بعض الشيء وجعلنا نشك في أمرٍ واحد، بدا لنا أنّ سطحها أكثر انبساطاً من اللازم فخشينا أنّها رُبّما تكون بُحيرة مالحة. هذا كان بمثابة القشّة التي قصمت ظهر بعيرنا حين اكتشفنا ذلك بالفعل عندما اقتربنا منها أكثر وأنّ تلك الرواسب هي تراكمات من رواسب ملحية على الرمال، كُنّا أمام بُحيرة

مالحة في منطقة مُنخفضة طبوغرافياً.. الآن أعرف لماذا راح الطَريق يهبط بنا تدريجياً؛ بحيرات الملح حيث مكان الراحة النهائي للماء من أنهار سريعة الزوال وفي مناطق مُنخفضة طبوغرافياً حيث يتداخل سطح الأرض مع المياه الجوفية، هذا كان اللغز الذي كشف لنا ما شاهدناه أمامنا، نحنُ أمام بُحيرة راكدة مالحة لا تصلُح للشُرب.

هُنا انهار ياسين حقاً، اعتقادُنا بأن شُعاع الأمل الوحيد الذي ظلّ يتفاقم وقد شكّل هاجساً يمتدُ في داخلنا طوال الطَريق آملين في أن يخرج بنا في النهاية إلى نُقطة جديدة للنور لن يرتد هكذا فجأة نحو اللاشيء كان مُجرّد وهم، ضربتنا صاعقة جديدة فحفّزت معها في داخلنا دوّامات اليأس التي بقت تتوغّل لتُطفئ كُلّ نُقطة للنور صادفتها.

خرّ ياسين ساقطاً وجثوتُ أنا على رُكبتي من شدّة الإنهاك واليأس الذي تملّكني فنفذ إلى داخلي بينما ظلّ مالك وحيداً واقفاً هكذا يتطلّعُ بوجوم نحو الفراغ، أدركنا أنّ هذه اللحظة هي لحظةٌ حاسمة في مِشوار الطريق. تطلّعتُ بيأسٍ نحو إبراهيم فوجدته ما زال راقداً بجانبنا في بطن الجمل يُنازع لحظاته الأخيرة بينما هذا الأخير يشرب من ماء البُحيرة وكأنّ شيئاً لم يكُن. سألتُهُ السَماح والمغفرة في نفسي، ومن قبله طلبتُ ذلك من مُختار. فرّت دمعةٌ حارقة من عيني لتتشكّل على وجنتاي تشي بشعوري وبمدى المعاناة الحقيقية التي نعيشها، الآن أسأل نفسي وربّما للمرة الأخيرة ما الذي دفعني حقاً على الموافقة على هذه الرحلة المحفوفة بالمخاطر من الأساس، أهو الذهب أم أنّه الهروب من قنط الحياة. الآن أمقُتُ الرحلة وأمقُتُ الذهب، أمقُتُ كُلّ شيء في هذه الحياة، للمرّة الأولى أشعُر بأنّي أتمنى الموت هُنا وحيداً في قلب هذه الصحراء القاحلة وأن أدفن تحت رمالها الذهبية، أتمنى أن تزهق روحي سريعاً هُنا وتنفلت من جسدي لتسبح بعيداً في الفضاء وتُعانق روح مُختار ثُم تشُقّ طريقها نحو الواحة لتتفقّد الشيخ إدريس. أفقتده وأفتقد الواحة، أفتقد كُلّ شيء فيها، الآن أشعُر بالوحشة، وأشعُر بأن جسدي يتآكل، وبروحي المُكبّلة تتحطّم في داخلي. أسمعُ صُراخ ياسين من حولي، ينادي بأن نعود من حيث أتينا

ونسلك الطريق الأخرى في المُفترق علّنا ننجح، صوتُهُ يطُنّ في أذُني فيُرغِمُني على سماع ما يقوله، أسمعُهُ ولا أبالي.. أسألَ نفسي؛ كم أمامنا من الوقت في هذه الحياة حتى نصل.. أو كي نعود، كم دقيقةٍ في حوزتِنا نُهدِرُها في تجارُب أخرى وفي طُرُقٍ لم نسلُكها من قبل. أنكمِشُ حول نفسي وأتطلّعُ بضيقٍ نحو الجمل الذي ما زال يشرب فأراه وقد صار جسده هزيلاً جدّاً، أنهكتهُ الرحلة وطول الطريق، لو يعي أنّنا حتى الآن لا ندري أين نحن أو كم تبقى أمامنا من الوقت حتى نصل إلى وادي الذهب لرُبّما رغى في وجوهنا للمرة الأخيرة ثُمّ فرّ بلا عودة، ولكن إلى أين سيفرُّ في هذا الجحيم الذي لا يُطاق، الطريق مسدودة من أمامنا برغم كُلّ هذا الفسح. يُزعِجُني أحياناً هذا الفارق الضئيل الذي يترنّح بين الشيء ونقيضهُ في الصحراء، مُنذ أن انطلقنا وأضحى الفرق بين أيّ شيء وعكسه باهتاً ضئيلاً إلى الحد الذي لا يتبيّن معه أي شيء، حتى الحد الفاصل بين الموت والحياة بهُت فأضحى هكذا لا يُفرّق. أقول متى نحيا ومتى نموت، متى نصل أو متى نعود، متى ننجح أو متى نخفق، متى يُحالفنا الحظ مرّة ومتى يقضي علينا أخيراً.. كُلّ شيء يُجبرنا في النهاية على التفكير في مصيرنا وهذا يدفعُنا ببُطء نحو الجنون ولكن بثبات، هذه ميزة جديدة اكتسبناها في الطريق، معرفة رُبّما ليست بهذا السوء، كُلّ شيء في نهاية المطاف سيدفعُك نحو يقينٍ واحدٍ بالموت في نهاية الطريق، كُلّ فكرة تقفز إلى مُقدّمة رأس أي منّا هي بمثابة خطوة نخطوها في طريقنا نحو الهاوية، النهاية المحتومة والمُغلّفة بغشاء مطّاطي رقيق يبهتُ في كُل مرّة ليُبرِز الجانب الآخر من الصورة فتظهر أكثر وضوحاً، لذا ما الدّافع من الخوف أو القلق أو حتى القنوت بعد الآن؟!.. هكذا تسألُني نفسي وهكذا أجيبُها.

فجأةً يصرخ ياسين من جديد، صرختُهُ هذه المرّة لم تكُن عويلا إنّما صرخةُ أملٍ نابعة من قلب المُعاناة، هكذا ظهرت وهكذا استشفّيتُها، وهكذا أحيث في داخلي جذوراً جديدة من الأمل. كان هذا عندما رأيناها هُناك على مدى الأفُق مُنتصبة تحمل معها شموع النّور وتقِفُ شامخةً في قلب الصّحراء (لـ)تُضيء، شكّلت لنا من بعيد حاجزا وهميا نفذ إلى قلوبنا قبل

أن يخترق عقولنا وراح يتأرجح في أعيننا فيظهر الصورة ثمَ يمحها في ثوانٍ كسرابٍ يذش في أذهاننا مزيداً من سمّ الشك ليتحول مع الوقت إلى جزءٍ يُسيطر على أفئدتِنا.

مالك خطا نحوها الخطوة الأولى، بينما سرنا نحن من بعده كالمُقيّدين تجُرّنا أقدامُنا وذيول الخيبات المُبعثرة في بصيص من الأمل الواهم، كُلّ منّا يُناجي نفسه فيقول: إن صدقت رؤيانا حقّاً ووصلنا رُبّما تكون هذه فُرصتنا الأخيرة في النجاة.. أو إن لم تقضِ علينا سنُعيد إحياء آمالنا من جديد.

وإن كان الجسد قد سقط أسير قيدٍ جديد فرُبّما يكون هذا القيد هو منبع نُقطة الضياء الجديدة لنا، لذا أيّاً كان هذا القيد سنُكمل الطريق، لا ينبغي للعقل دائماً أن يكون أسير الخوف، حتى لا نغدو في النهاية صيداً يسيراً لليأس..

****

مالك

اقتربنا منها أكثر حين صار فؤادي يتراقص في موضعه، كدنا نفقد اتّزاننا من هول المُفاجأة. بينما كُنّا على شفا حُفرة من الانهيار ظهرت أمامنا فجأة تُخبرنا بأن حبل الأمل لا يزال لم ينقطِع، كان ياسين أوّل من رآها هُناك على بُعد أميالٍ منّا ونبهنا إلى وجودها، ولكننا لم نتميزها حقاً إلا بعدما اقتربنا منها أكثر وصعدنا فوق تلّةٍ عالية نستكشفُها، بدت لنا من بعيد وكأنها واحةٌ حقيقية يقطنُها بشر، شاهدنا فيها حركةً، وشاهدنا أغصان نخيلٍ تُحلّق في السماء فوقها في حين بدت الأرض من حولها مكسوّة بغطاءٍ أخضر قاتم يبعث على الحياة. المسافة بيننا وبينها لم تكُن هائلة إلا أنّ إبراهيم في تلك الأثناء اختار نهايةً أخرى، لم يتحمّل وجعةَ عند هذا الحد فلفظ نفسهُ الأخير قبل أن نصل.

ظهرت عليه أعراض موتٍ مُفاجئ(ـة). تجمعنا حوله، نُؤازِرُه ونشُدُ من عضُدِهِ، بدا حينها غافلاً عما يدور من حوله بينما كان يُنازع لحظاته

الأخيرة (في الحياة) بصعوبة، إلا أن الشيخ يونس حين راح يوشوش في أذنه بكلام غريب لم أتميزه لمحتُ شبح ابتسامة تطل من بين شفتيه، هذا بعث في نفسي الأمل وجعلني اعتقد أنه ربما بعي ما يسمعه فزحت اقص عليه ما شاهدناه من أمر البحيرة التي ظل يحدثنا عنها، لم أخبره حينها أنها كانت مالحة، اخبرته أننا وصلنا إليها وشربنا منها واكتفينا وأننا اكتشفنا بعد ذلك واحة حقيقية وهي على بعد ساعات قليلة من هنا.. ولكنه بعد كل هذا الحديث لم ينتظر، بل ابتسم ابتسامة الوداع ثم لفظ نفسه الأخير معها.

كالعادة كان ياسين يقف هكذا متطلعاً برهبة نحو مشهد تكرر من قبل في حادثة موت مختار وقد فرت دموع عينيه. أيقنت منذ الوهلة الأولى التي رأيت فيها إبراهيم هكذا أن ساعته لم تكن ببعيدة أبداً وأن بقاءه على قيد الحياة ما هو إلا مسألة ساعات، ولكنه مع ذلك غافلنا في رحيله، في وقت تمنيت فيه أن يصمد أكثر تركنا ورحل. كنت أتمنى حينها لو أنه قد استوعب شيئا من حديثي، كنت أحدثه بكل حماسة واطلب منه أن يتحامل على نفسه حتى نصل بعدما كنا قد اوشكنا. وربما نجد هناك من يعالجه، ولكنني في النهاية شعرت بثقل راسه على قدمي، هذه بالتأكيد نهاية شوط طويلة قطعها معنا في الرحلة، ابت الحياة ان تعطيه فرصة جديدة، أبت أن تمهله بضع سويعات نصل فيها إلى هناك ولربما وجدنا حينها من قد يستطيع إنقاذه.

أهو حقاً كان يعي ما يسمع؟

عطلنا موت إبراهيم كثيراً حين اختلفنا في مسألة دفنه، اقترحت أنا أن نحمله معنا إلى حيث تلك الواحة وندفنه هناك عندما نصل، ياسين أيدني في هذا الرأي إلا أن الشيخ يونس رفض ذلك رفضاً قاطعاً، قال أنه ربما لو وصلنا إلى هناك ومعنا جثة إبراهيم لخاف منا أهل تلك القرية ولرفضوا استضافتنا عندهم ونكون بذلك قد أهدرنا آخر فرصة لنا في النجاة، ولربما هاجمونا أيضاً. كلامهُ حمل شيئاً من المنطق، إن وصلنا إلى هناك وشاهدونا نحمل معنا جثة بالطبع لن يستقبلوننا بالترحاب، وقد يهاجموننا أيضا

ويردونا قتلى إن أحسوا بشيء من الخطر تجاهنا. اقترحت عليهم بعد تفكير طويل أن أتقدمهم أنا وحدي لأصل إلى تلك الواحة ثم أعرض على أهلها موقفنا، إن وافقوا تقدمنا حينها جميعا وإن لم يوافقوا أكملنا سيرنا في طريق أخرى بعدما أكون قد طلبت منهم شيئاً من الماء وبعض المؤن، وافقوا على هذا الاقتراح أخيرا وقد نصحني الشيخ يونس في النهاية بأن أتوخى الحذر وأن أقابل كبيرهم أولا لأجس نبضه قبل أن أعلمهم بأي شيء يخصنا وثم بعد ذلك إن أبدى ترحابا أقص عليهم حكايتنا كاملة دون أن أخبرهم بحقيقة بحثنا عن كنز الذهب في وادي جوف.

هكذا تركتهم ورحلت بعد أن اتفقنا على كل شيء ووضعنا أمامنا كل البدائل المحتملة في حال غدر بنا هؤلاء القوم. تقدمتهم وحدي نحو الواحة لا أدري ما يحمله لي حظي هناك من مفاجآت. قطعت درباً من الطريق يقارب الخمس ساعات سيرا على الأقدام حتى غدوت على مشارف الواحة. نظرت خلفي فلم أرهم، كانوا قد اندثروا بعيدا خلف خط الأفق.

كنا قد اتفقنا مسبقا على أن أقطع تلك المسافة إلى هناك بمفردي ودون أن أصطحب معي الجمل حتى إذا ما كان في نية هؤلاء القوم غدر لا أدع لهم مجالا لأن يعرفوا من أي أرض أتينا. خشي الشيخ يونس من أن يكون ثمة مأمور هناك في تلك الواحة ربما قد وصله أمر غيابنا عن واحتنا عن طريق المراسلات أو القوافل التجارية، حينها لن يدعنا نغادر دون أن يعرف سبب رحيلنا المفاجئ وربما افتضح أمرنا حينها وخسرنا الذهب.

عندما أصبحت على مشارف تلك الواحة لاحظت شيئاً غريبا يجري هناك، بمجرد أن وصلت حتى تجمع عدد من أهل القبيلة راحوا يلوحون بأيديهم تجاهي. لم أفهم حقاً ما يدور هناك حتى بعدما اقتربت أكثر وقد زاد عددهم بشكل ملحوظ ولاحظت ثمة حركة غريبة تصدر وارتباك عام، وكانت ثمة إشارات أخرى يطلقونها فيما بينهم زادت المشهد ارتباكا. ثم راحوا يطلقون صيحات غريبة تجاهي كأنهم يحاولون منعي من التقدم، وتنبهت فجأة أن جيشاً قد تكوّن أمامي قبل أن يظهر من بينهم شخص

كهل بلحية كبيرة عرفت أنه كبيرهم.

تنبهت وقتها انني كنت ما زلت ارتدي **ملابسي** الزرقاء تلك واللثام على وجهي؛ ملابس الطوارق التي عمدت على أن ارتديها عندما رحلنا حتى إذا ما قاطعنا أحدٌ منهم على الطريق امنا شرهُ بعدما يعتقد أننا زبما من أهله، حينها فقط أدركت مدى خشيتهم مني حين راحوا يوجهون اسلحتهم تجاهي برغم أني كنت فردا واحدا وهم في المقابل قبيلة. كانت تلك هي اللحظة الفارقة التي أدركت فيها حجم الخطر الحقيقي الذي يشكله الطوارق على اهل البادية برغم كل السنين التي مرت من آخر حادثة حدثت في قريتنا.

هكذا توقفت وعمدت على أن اتخلص من ملابسي هذه كاملة أمامهم، ثم نحيتها جانباً ليامنوا شري. ورحت أشير لهم بيدي علامة السلام. في دقائق راحوا يطالعون بعضهم البعض ويتبادلون النظرات فيما بينهم وهم مستغربون أمر كبيرهم واحدا من رجاله فتقدم نحوي بحذر وقد حمل لي قطعةً من ملابس القاها أمامي وعاد ادراجه. التقطت قطعة الملابس وارتديتها على مراى منهم ثم بعد ذلك سمح لي كبيرهم بان اتقدم، بإشارة واحدة من يده.

****

يونس

القاعدة الخامسة: زبما إن حانت لحظة وداعك يوما ما وأنت في الصحراء فدعها، ولا تدع شيئا يفسدها؛ ففي موت الصحراء كما في عيشها.. نشوة تستحق التفرُّد.

غاب عنا مالك يومين كاملين لا نعرف عنه شيئاً ولم نسمع منه حتى. قبل أن يرحل قال أنه بمجرد أن يصل إلى الواحة سيعلمنا بما يحدث معه، ولكنه في الحقيقة اختفى وحمل معه كل الاخبار. هكذا أصابني القلق جراء هذا الاختفاء المفاجئ فعرضت الأمر على ياسين الذي بدا غير مبالٍ من الأساس لما يدور حوله، كان منشغلاً بأشياء أخرى تدور في ذهنه مثل

روح مُختار التي تزوره وتحوم دائماً في الأفق كما يقول. قال لي بأسلوب غير ذي جدوى أنه رُبما قد وقع أسيراً هناك عندهم وإن ذهبنا نحن الآخرون خلفه قد نقع أسرى كذلك، غارضتُهُ في تلك الفكرة وإن كُنتُ لم أجد ناحيتهُ أي شيء يدفعني إلى تأييد أو رفض ما يقوله، قُلتُ في نفسي لو كان أسر حقاً لما بقينا ها هُنا يومين كاملين ننتظر، بالطبع كانوا سيعرفون مكاننا وسيبعثون من يصل إلينا ليأسرونا نحن الآخرين، وإن كان قُتل قبل هذا فلن نسمع عنه أبداً. ما أربكني حقا حينها فكرة أن يكون قد غافلنا جميعا كل هذه المدة وهرب وحده نحو وادي الذهب بعدما عطلنا ها هنا ليومين كاملين وبعد أن رافقناه إلى هذا الحد من الطريق، رُبما هذه كانت فرصته الوحيدة وأننا وقعنا خديعة مكره طيلة الرحلة وأنه الوحيد الذي كان يعرف منذ البداية بأمر الطريق وقد أظهر عكس ذلك حتى لا ينكشف أمرهُ. منذ أن مات إبراهيم المرشد بات هو الوحيد الذي تدور حوله كُل الشكوك وحيال كل شيء.

فزعتُ من تلك الفكرة حين جالت بخاطري وقد كدتُ أجن وقتها فعرضتُ الأمر على ياسين ولم يبد هذا الأخير أي ردة فعل. كُنتُ أحادثهُ مع يقيني بأن عقله غير موجود، ولكنني كُنتُ بحاجة ماسة إلى أن يسمعني أحد وإلا سأجن أنا الآخر. خشيتُ أنه رُبما يكون هذا الاحتمال هو الأصوب وأننا لا بُد من أن نتحرك الآن قبل فوات الأوان. لم يبق أمامنا سوى حل وحيد لا بديل عنه، أن نتقدم نحو الواحة حتى وإن كان في ذلك هلاكُنا، ليس لدينا سبيل أخرى للنجاة. التراجع يعني هلاكُنا حتماً بينما التقدم مع خطره ما زال يحمل الأمل، من يدري رُبما يكون مالك من الأساس لم يصل إلى الواحة وقد اتخذ طريقا أخرى موازية إلى الوادي، فنعرف.

في النهاية تقدمنا إلى هُناك وكنت قد عزمت الأمر على أن أحادث كبيرهم بمجرد أن نصل لأسأله عن مالك دون أن أبدي له شيئا من أمر الرحلة لأعرف ما يدور في ذهنه، ورُبما حينها ينكشف لي ما نحن بصدده.

عندما وصلنا إلى الواحة وبعد خمس ساعات على الطريق، كان أول

شيء فعلته أن طلبت مقابلة كبير الواحة. كان ذلك حتى قبل أن أسأل أحدا منها أن يمدنا بالماء لنروي عطشنا، وقد كنا على مشارف الهلاك من شدة العطش ومن الجوع. ياسين انزوى تحت شجرة كبيرة وغفا من شدة التعب. أكملت أنا سيري اخترق الواحة واستكشفها. بمجرد أن صادفت واحداً من أهلها طلبت منه أن يوصلني الى كبيرهم، دلني على مكانه ببساطة ودون أن يُبد أي اهتمام بشيء آخر. كأنه لا يشاهدنا هنا الآن للمرة الأولى في حياته. ردة الفعل تلك بدت غريبة علي. لم اتوقع هذا أبدا. توقعت صداما حتميا من قبل حتى ان تخطو اقدامنا ارض الواحة. الآن يتركوننا هكذا نسير دون حتى ان يسألنا واحد منهم من اي ارض أتينا. أو لماذا.. شيء غريب يدور هنا. الكل بدا غير مهتم بوجودنا كأننا خيالات تجوب المكان. وهذا اقلقني اكثر.

في الواحة رأيت أناسا غريبي الأطوار، يقطنون بقعة معزولة من الأرض، أناساً يبدو مع هذا بسطاء جداً. يغطون الملح بالتراب ثم يبذرون محاصيلهم.. كان أيضا ثمة ثيران تمشي إلى الخلف في أثناء رعيها على عكس المعتاد وتفعل هذا لأن قرونها معقوفة نحو الخارج أمام رؤوسها لذا لا يمكنها التقدم إلى الأمام في أثناء الرعي، لأن قرونها ستعلق في تلك الحال بالأرض. هذه اول مرة كنت اشاهد فيها ثيرانا بهذا الشكل في محيط الصحراء. جبت صحارٍ كثيرة ومناطق مختلفة ولم اشاهد من قبل مثل تلك الثيران ولا حتى شبيهاتها، بدت غريبة في هيئتها ولكنها في نفس الوقت لم تختلف كثيراً عن ثيران أخرى إلا في هذا وفي سماكة جلودها وقسوتها. خُيل لي ان هؤلاء القوم ما زالوا يعيشون في قرون ما قبل القرون الوسطى؟!.

سألت عدداً كبيراً منهم عن مالك ان كانوا شاهدوه من قبل هنا في الواحة، جميعهم أنكروا وجوده، كأنني حينها كنت أستجوبهم، أو أسأل عن شبح ما يسكن الصحراء، معظم الإجابات جاءت بالنفي وإن كان بعضهم آثر ألا يتكلم حتى يتحدث كبيرهم، هكذا ظهر لي، كأنهم مدركون لشيء ما أو مدربين على ما يدور في الواحة.

في النهاية وبعد شد وجذب وبعدما بدت إنكارهم الغريب هذا، ذهبت لكبيرهم. ساقني إليه رجل من أهل الواحة، قبل أن نصل إليه بأمتار وجدته يقف على عتبة باب منزله يستقبلنا بالترحاب وكأنه ينتظر قدومنا منذ زمن. استقبالة المفاجئ هذا وبهذه الطريقة الغريبة أذهلني، كيف عرف أننا سنجيء؟!..

رأيت رجلاً طاعناً في السن، لحيته بيضاء طويله، يتكئ على عكازين قصيرين وعلى وجهه ارتسمت كل تجاعيد السنين فاوحت بان عمرة الافتراضي قد انتهى منذ مدة، يستقبلنا بالترحاب ويمد إلي يده بابتسامة غريبة. تعجبت امره في البداية، ولكنني وجدت نفسي اسايره في ذلك الترحاب المبالغ فيه. ثم بعد ذلك لم انتظر اكثر وسالته عن مالك، ولم يجبني، قال أنه من غير المنطقي أن نتحدث في اي امر قبل أن نأخذ واجب ضيافتنا. هنا فقط تيقنت أن ثمة شيء ما يدور في الواحة ولا يريدني أن أعرفه وانه ربما يعرف تفاصيل اكثر عن مالك يريد إرجاؤها إلى أجل غير مسمى. مع هذا سايرته وذهبت معه إلى حيث أراد.

أخذني من يدي إلى نقطة معزولة في الواحة فيها مكان فسيح، وأمر واحداً من رجاله ان يذهب ليجلب ياسين. لا ادري كيف عرف بأمر وجود ياسين هنا أيضاً دون أن يره ولكن هذا لم يفاجئني بعد كل الذي شاهدت، هذا أكد لي أكثر أن هذا الرجل ليس بتلك السذاجة التي تظهر في هيئته.

في البداية عندما وصلنا وشاهدت هؤلاء القوم تعجبت امرهم تساءلت في نفسي كيف يستطيع هؤلاء أن يعيشوا في مثل هذه الظروف القاهرة. نحن في واحتنا لم نكن يوما بهذا السوء الذي شاهدتهم فيه.. أين ماؤهم، لم ار أي مصدرٍ للماء منذ أن دخلنا الى الواحة، اين يخفون ثقوبهم الصخرية التي يشربون منها، كيف تنبت محاصيلهم هذه كلها ويسقونها؟! هكذا تساءلت، ولكنني وجدت الإجابة حين ساقني كبيرهم هذا الذي عرفت بعد ذلك انه يدعى الشيخ مفتاح إلى مكان غريب في طرف الواحة، مكان بدا اشبه بفسحة كبيرة خاوية من اي شيء إلا من شجرة

عتيقة تحمل أغصاناً بالية وتقطن تحتها كلبة، أنثى.

بدا لي عندما شاهدتها أن هذه الكلبة تسكن المكان منذ زمن هي وجراؤها. أول ما اقتربنا منها نهضت، فراح مجموعة من الرجال يكنسون الأرض من حولها بأغصان خشبية بالية وكأنهم يستأذنونها ليعلنوا عن وجود غرباء في المنطقة. تعجبت أمرهم ووقفت أطالعهم بذهول بينما كانت الكلبة تقف وتنظر إلينا بشراسة غير معهودة، قبل أن تهدأ مع مرور الوقت وتعود إلى حيث صغارها. عرفت بعد ذلك أن تلك الكلبة تدعى جارنتو والتي سكن جراؤها المنطقة حول الثقوب الصخرية والمسطحات المائية المرتبطة بشبكة قنوات تحت الأرض والخاصة بالواحة، وهي تتمتع بقوى علاجية، لكنها أيضا حامية شرسة لديارها وقومها. يدخل الشعب الأصلي الموقع بنحو شعائري وباحترام كبير ويكنسون الأرضية بأغصان، ويعلنون عن وجود غرباء ويتركون الطعام لجارنتو التي ترد على هذا الكرم بضمان صيد ناجح لأبناء موطنها وحمايتهم من الخطر. هكذا عرفت الحكاية كلها.

جاء ياسين بعدها فشربنا. كانت الأملاح حينها قد وصلت أوجها في دمائنا فشعرنا بأن العطش يتغلغل في داخلنا بعنف مفرط كاد أن يقتلنا. شربنا حتى ارتوينا. بعد ذلك سألت الشيخ مفتاح عن مالك مرة أخرى، في البداية راح يتهرب من الحديث عنه ولكنه مع ضغطي الشديد والحاحي عليه لم ينكر قطعاً وجوده فاستنتجت على الفور أنه يعرف. بينما ما زال يخفيه عنا. أصريت عليه أن يقول لي ما يعرفه فرضخ في النهاية وقص علي الحكاية كلها ومن البداية. قال لي حينها ما كنت أرقبه وما ظللت أخشاه طوال الوقت، حكى لي حكاية مالك كلها، بدا لي أنه يعرفها من البداية وحتى نهايتها، قال لي أنه يعرف مالك منذ أن كان طفلاً صغيرا يلعب إلى جوار والديه ويقطن القبيلة التي تجاورهم. قال لي أن مالك عندما وصل إلى الواحة قبل يومين حكى له ما كان يبحث عنه حتى يساعده، ما صدمني أنه قال لي أن مالك لم يكن يبحث عن الذهب حينها.. سأله حينها عن مامون زعيم الطوارق، مالك لم يسافر كل تلك المدة ولم

يقطع كل هذه المسافة من أجل كنز الذهب المختبئ في وادي جوف كما كان يدعي، مالك كان يبحث عن «مأمون» زعيم الطوارق الذي قتل والده ومعظم قبيلته حتى يقتص منه على ما فعله في قبيلته قبل سنين كثيرة، هكذا قال لي وهكذا ضعفت.

في البداية ظننته يكذب أو ربما يخدعني من أجل أن يتحصل هو على الذهب ويتقاسمه مع مالك. ولكنه أعطاني جواباً تركه مالك لي وقد كتبه بخط يده يحكي فيه عن كل شيء، ويطلب مني أن أسامحه. مالك كان يخدعنا كل هذه المدة. كذب علينا بشأن كل شيء. لا يوجد ذهب ولا يوجد كنز. بل لا يوجد من الأساس واد اسمه «جوف» كما أخبرني مفتاح.

الطامة الكبرى نزلت علينا فصعقتنا. ياسين لم يدرك بعد حجم المصيبة التي وقعنا فيها. ما زال يبحث عن شيء لا وجود له اسمه مختار. لم يعي بعد أن مختار قد مات منذ زمن ولن يعود مرة أخرى. ما زال واهماً بأن مختار يزوره ليلاً ويجوب المكان من حولنا. ربما لم يعي بعد أن إبراهيم الفرشد هو الآخر قد مات. وأن مالك قد خدعنا جميعاً ورحل بحثاً عن زعيم الطوارق لا عن الذهب. لأنه لا وجود من الأساس للذهب.. ياسين لم يعرف بعد أنه جن. هو الوحيد من بيننا الذي فقد عقله ولم يعرف.

وجدت نفسي أترك ياسين والشيخ مفتاح وواحته من خلفي ورحت أسير. رحت أمشي بحثاً عن شيء لا اعرفه أنا أيضاً، ربما عن طريق تدلني على اي شيء، أو على الواحة.

من اين أبدأ رحلتي وفي أي اتجاه اسير. وإلى أين سأصل.. أسأل نفسي فلا تجيب هذه المرة، ويتولد في داخلي سؤال واحد فقط:

هل الصحراء ستنتهي يوما ما؟!

.. تمت ..